أبو الوفا الغنيمي التفتازاني *

الانسان والكون في الاسلام

تمهيد

الانسان بطبعه كائن مفكر ، منذ وجد على الارض وهو دائم التفكير فيما حوله ، وسيظل كذلك طالما هو موجود عليها ، فالفكر الانساني لم يتوقف ـ ولن يتوقف أبداً ـ في كل المجالات التي يمكن أن يتناولها بالبحث والدراسة ، وليس من المتصور مستقبلا ، مهما تقدم العلم ، أن يزعم الانسان انه أحاط بكل شيء علما ، لأن الكون أوسع من أن يحيط به عقله ، وهذه الحقيقة نفسها هي وراء تقدم العلم ، فلو كانت الحقائق العلمية ثابتة ومتناهية لوقف التقدم العلمي عند عصر معين أو نظريات معينة .

ونحن لا نقول مع سارتر : « ان الانسان محكوم عليه بأن يكون حرا » (١) ، وانما نقول ان ما هو أكثر حقيقة « أن الانسان محكوم عليه بأن يكون مفكراً » ، وما دام الانسان قد حكم عليه بأن يكون مفكرا ، فسيظل يتساءل بين الحين والحين عن علاقته بهذا الكون ومصيره .

والانسان هو هو لم يتغير ، كل ما في الأمر انه كان قديما ينزع الى التفسيرات الميتولوجية للظواهر الكونية عن طريق الربط بين هذه الظواهر وبين علل خفية ، أو أرواح خيرة أو شريرة ، بتخيلها دون أن يكون لوجودها حقيقة ، وهو الآن يستعين بنظريات العلم في تفسير هذه الظواهر نفسها تفسيراً واقعياً ، ولكنه يحس من ناحية أخرى أن العلم لا يفسر له كل شيء ، وان ما يعرفه عن الكون لا يزال أدنى بكثير مما لم يعرف ، فانسان العصر في الحقيقة ليس أقل من الانسان القديم

---

* الدكتور ابو الوفا التفتازاني استاذ الفلسفة الاسلامية المساعد بجامعة الكويت والقاهرة يهتم على الخصوص بدراسة التصوف الاسلامي وعلم الكلام وله فيهما دراسات عديدة باللغة العربية والانجليزية والاسبانية وقد اهتم بدراسة التراث الفلسفي الاسلامي في الاندلس وذلك بتشجيع من الحكومة الاسبانية .

(1) Sartre (J. - P.) : L'être et le néant, P 638.

اطلاقا لعنان خياله ، ولكن خياله فى هذه المرة ـ اذا صح التعبير ـ خيال علمي ينطلق من حقائق العلم الى آفاق المجهول الواسعة .

وهنا قد يتساءل البعض : هل ستستطيع النظرة الفلسفية الكلية الشاملة للوجود أن تصمد فى هـذا العصر أمام الزحف العلمي بعد أن وطأالانسان بقدميه سطح القمر ؟

واجابتنا على ذلك هي أننا نتوقع أن تقوىهذه النظرة الفلسفية عما كانت عليه من قبل . ذلكأنالبشرية قد دخلتعصراًجديداً أبرز ما يميزه ايمان لا حد له بالعلم والتكنولوجيا ، وازدياد فى ثقة الانسان بنفسه فى مواجهة الطبيعة ، واعتدادبعلمية التفكير فى شتى نواحي الحياة الانسانية ، ومن هذا المنطلق ستنشأ فلسفات جديدة ، ولكنهاستحتاج الى مجهودات غير عادية تبذل لتنوع العلوم وازدياد الوقائع العلمية بشكل يفوق تصورالعقل ، فهذه الوقائع تتضاعف يوما بعد يوم بحيث يصعب على أى مفكر ان يلاحقها ، وأى فلسفةنظرية مستقبلة لا تستند الى وقائع العلم منظورا اليها نظرة كلية شاملة لن تجد قبولا .

ومن المتوقع أن يتناول المفكرون مستقبلاقضايا لم يكن يهتم الناس بها كثيراً من قبل، فبعد أن كان الناس فى القرن الماضي وأوائل هذا القرنيوجهون اهتمامهم الاساسى الى الواقع المادى المشاهد ، وتطور الكائنات الحية على هذه الارض ،خصوصا بعد اعلان داروين نظريته فىالتطور ، فان الجيل المعاصر والأجيال التي ستليه ستوجـهاهتمامها الى الكون الخارجي ، وستتساءل عـن حدوده وأبعاده ، وامكان وجود كائنات أخـرىفيه ، وما هو نوع حياتها ، وهل الفضاء الخارجي يتناهى او لا يتناهى ، وهل هناك امكانية لحياةالبشر على سطح بعض الكواكب الاخرى ، وهل لا يوجد فى هذا الكون الا الانسان فقط ؟ كل هذهتساؤلات أصبحت تلح على الانسان المعاصر بعد أن نجح فى الوصول الى القمر .

وصحيح أن مثل هذه التساؤلات لن يجيبعليها بشكل محدد الا العلم ، ولكن الانسان لن ينتظر حتى يجيب العلم عن كل تساؤلاته ، وعندئذسيلجأ اما الى الاستدلال العقلي ، فيضع أمامه نتائج العلم ليستنبط منها بنظرة كلية شاملـةاجابات على تساؤلاته تلك قد تصبح بعـد حين بمثابة فروض جديدة يبدأ العلم منها سيره الىاكتشاف آفاق أخرى مجهولة ، أو سيلجأ الـى الخيال لفترة طويلة مقبلة ، وسنجد كتابا ومفكرينيطلقون العنان لخيالهم فى شأنالكون ، بل ان بعض العلماء سيكثرون من الفروض العلمية الخيالية ،ولكن آراء اولئك وهؤلاء سـنكون أدخل فى باب الفن والادب منها فى باب العلم .

مهما يكن من شيء ، فان الفلسفة بنظرتهـاالكلية الشاملة ، والأدب والفن بما يوحيان به من المعاني والأفكار ، لن تفقد جميعا اهميتها فى عصرالعلم ، بل قد تعين العلم ذاته على مواصلة السير فى طريق التقدم .

ولعله من الملاحظ انه مع تقدم سير العلومالكونية نحو اكتشاف آفاق جديدة مجهولة ينشط دعاة المادية مؤكدين للناس وجوب النظرة الى كلتراث ديني على أنه لا مكان له فى هذا العصر . وقد أدى ذلك فى مجتمعاتنا العربية والاسلاميةالى نوع من الصراع ـ الذى لا مبرر له ـ بين قيم تراثنا الديني والحضارى والقيم الجديدة الوافدةالتي يؤكد عليها أولئك الدعاة . ومثل هذا الصراع ينشأ فى رأينا منعدم التعمقفى فهم طبيعة الاسلام،والانسياق بدون وعي وراء فلسفاتالعصر المادية ، وليس مـن شروط التقـدم العلمي أن يقتـرنبالالحاد ، كما أن الالحاد فى ذاته ليس دليلا على علمية النظرة .

ولعل من أبرز الاسئلة التي يثيرها عقل الانسان الآن فى مجتمعاتنا ، حين يحاول التوفيق بين الاسلام وروح العصر الذى يعيش فيه ، هذه الأسئلة الثلاثة :

(أ) العلم كما نرى الآن يكشف من أسرار الكون ما لم يكن يخطر على بال أحد من السابقين ، والفضل فى ذلك يرجع الى منهجه الذى التزم به ، فهل الاسلام متفق مع العلم روحا ومنهجا ، وما هى مظاهر هذا الاتفاق ؟

(ب) اذا كان العلم الحديث قد ساعد ، بما وصل اليه من نتائج في مجالات شتى ، على تكوين صورة معينة عن هذا الكون ، كما أثبت قدرة الانسان على تسخير ما فيه من قوى طبيعية وخيرات مادية لمنفعته الخاصة ، فالى أى حد تتوافق هذه الصورة مع تلك التي يمكن أن نستخلصها من المصدر الأول للاسلام ، وهو القرآن الكريم ، عن الكون والانسان ؟

(جـ) اذا كان العلم بصاحبه الآن كما نرى ايمان شديد بالمادة وغرور جامح بامكانيات الانسان ، فما هى قيم الاسلام الروحية التي تحد من أخطار ذلك ؟

لقد أردنا لبحثنا هذا أن يكون محاولة للاجابة عن هذه الاسئلة ، وفيما يلي بيان ذلك :

(١)

لو أنك نظرت الى العلم نظرة فاحصة لوجدت أنه فى أساسه خلق ، فالعالم يكتسب معلوماته وفق آداب معينة ، وهي مايعرف بقواعد المنهج العلمي ، فالعلم ليس معلومات بقدر ما هو طريقة أو منهج لتحصيل هذه المعلومات ، وهو بهذا الاعتبار « قيمة » من القيم ، اذا آمن بها المجتمع كأسلوب فى الحياة ، فان هذا المجتمع يحقق تقدمه الحضارى المنشود ، واذا لم يؤمن بها أصبح أفراده فريسة للأوهام والخرافات ، ولم يحققوا لمجتمعهم أى تقدم مادى أو روحي .

وقيمة العلم بهذا المعنى قيمة أساسية فى الاسلام ، فهو يجعل التفاضل بين الناس فى المجتمع على أساس منه ، لانه أساس كل عمل ناجح أو سلوك فاضل . والتقوى ـ التي هي أيضا من أسس التفاضل بين الناس فى المجتمع ـ هي نفسها مردودة الى العلم باحكام الدين ، فرجع التفاضل بين الناس مطلقا الى العلم .

يقول تعالى : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » (سورة الزمر آية ٩) . ويقول تعالى : « يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات » (سورة المجادله آية ١١) .

وقد نبه الاسلام الناس الى أن العلم لا يقف عند حد معين ، وقد كان الناس قديما يعتقدون أن حقائق العلم ثابتة حتى أثبت علماء مناهج البحث فى العصور الحديثة أن نتائج العلوم احتمالية ، أى أن الصدق فيها احتمالي قابل للتغيير ، وهذا يفسر لنا التقدم العلمي المستمر ، وهذه المعاني كلها متضمنة فى قوله تعالي : « وقل رب زدني علما » (سورة طه آية ١١٤) ، ومن ثم أصبح واجبا على المسلم أن يستزيد من العلم يومابعد يوم ، فمسيرة العلم لاتتوقف أبدا .

ومما له دلالة عميقة على أن العلم فى الاسلام على درجة قصوى من الأهمية أن أول ما نزل من القرآن على الرسول (ص) هو قول الله تعالى : « اقرأ باسم ربك الذى خلق . خلق الانسان من علق . اقرأ وربك الاكرم . الذى علم بالقلم . علم الانسان ما لم يعلم » . (سورة العلق ، آية ١ ـ ٥)

ولهذا نجد الرسول (ص) يجعل فداء من يقرأون ويكتبون من أسرى بدر أن يعلم كل واحد منهم عشرة من أبناء المسلمين في المدينة القراءة والكتابة .

وشرط العلم في الاسلام ان يكون نافعا ، فقد كان الرسول (ص) يستعيذ من شر ما لا ينفع من العلم ، كما يستفاد ذلك من دعاء مأثور عنه يقول فيه : « اللهم اني أعوذ بك من قلب لا يخشع ، ومن دعاء لا يسمع ، ومن نفس لا تشبع ، ومن علم لا ينفع » .

والمقصود بكون العلم نافعا في الاسلام أن ينتفع به الفرد والمجتمع ، وقد رُوِيَ عن الخليفة عمر بن عبد العزيز أنه كتب الى أبي بكر بن حزم يقول : « انظر ما كان من حديث رسول الله (ص) فاكتبه فاني خفت دروس العلم (أي ذهاب أثره) وذهاب العلماء ، وليفشوا (أي العلماء) العلم ، وليجلسوا له حتى يعلم من لا يعلم ، فان العلم لا يهلك حتى يكون سرا (٢) »

من هذا كله تتبين لك مكانة العلم في الاسلام ، فهو قيمة اساسية من قيمه ، من شأنها كشف مجهول او استكناه معقول من أجل خير الفرد والمجتمع ، واذا كان الامر كذلك ، فالاتفاق بين العلم والاسلام ظاهر ، ولا مجال للقول بالتعارض بينهما .

● ● ●

ونحن لو نظرنا الى القرآن الكريم نظرة فاحصة متأنية لوجدنا أنه يوجه العقل البشري الى استخدام منهج متكامل في البحث في الكون (٣) .

---

(٢) الشيباني : تيسير الوصول ، القاهرة ١٣٤٦ هـ ، ج ٣ ، ص ١٧٨ .

(٣) لعله من المفيد في بداية بحثنا أن نحدد مصدر اصطلاح « الكون » من القرآن الكريم ومعانيه عند مفكري الاسلام :

وأول ما نلاحظه ان القرآن الكريم يشير الى أن التكوين ـ وهو اخراج المعدوم من العدم الى الوجود ـ صفة لله تعالى ، وهو تكوينه للعالم ، ولكل جزء من أجزائه لوقت وجوده على حسب علمه وارادته (التهانوي : كشاف اصطلاحات الفنون ، مادة : « التكوين ») . والتكوين مشار اليه في قول الله تعالى : « اذا قضى امرا فانما يقول له كن فيكون » (سورة مريم ، آية ٣٥) . ومعنى ذلك أن الله يحكم بكون هذا الأمر فيكونه (ابن حزم ، الفصل ، بهامش الملل والنحل للشهرستاني ، القاهرة ١٣١٧ هـ جـ٣ ، ص٥٢) .

ويرى المتكلمون أن الكون مرادف للوجود (التهانوي : كشاف اصطلاحات الفنون ، مادة : « الكون ») ، وقد يستخدم اصطلاح « العالم » أيضا ويشار به الى مجموع أجزاء الكون ، أي الى مجموع المخلوقات (نفس المرجع ، مادة : « العالم ») .

ويرى أهل التحقيق ، كما يقول الجرجاني ـ ولعله يقصد بهم الصوفية من اصحاب وحدة الوجود ـ ان الكون عبارة عن وجود العالم كله من حيث هو عالم لا من حيث أنه حق . أما أهل النظر من الفلاسفة فيرادف الكون عندهم الوجود المطلق العام ، وهو بمعنى المكون عندهم . (التعريفات ، مادة : « الكون ») فالكون بالمعنى الذي يمكن ان يستخلص من التعريفات السابقة هو مجموع ما تكون بالارادة الالهية في الزمان والمكان من الموجودات على اختلافها بعد أن لم تكن موجودة . ولهذا المعنى ما يماثله في التراث الفلسفي الأوروبي ، فان لفظ « كون » « Universum » يشير الى مجموع الأشياء (Summa rerum) ، أو مجموع ما يوجد في الزمان والمكان . وعند الفيلسوف ليبنتز أيضا هو جملة الاشياء الموجودة ، واذا كان ثمة عوالم يمكن أن توجد في أزمنة مختلفة وأمكنة مختلفة ، فانه يمكن اعتبارها جميعا عالما واحدا ، أو ان شئت كونا (Theodicée, 1.8) . وقد يطلق الكون مجازا على العالم المرئي (Le monde visible) (أو عالم الشهادة كما يطلق عليه الاسلاميون) . وقد يعتبر الكون (Univers) مطلقا على حين يعتبر العالم (Monde) نسبيا : Comte (A) : polit. positive, 1,348

اما بالنسبة لنظرية النسبية عند اينشتين فان الكون هو مجموع الأحداث المتميزة بارتباطها الزمكاني (نسبة الى زمان ـ مكان) ، انظر في هذه المعاني وغيرها :

Lalande : Vocabulaire technique et critique de la philosophie, Art «univers».

ولهذا المنهج خطوتان : احداهما يطرح فيها الانسان جانبا آراءه السابقة عن الكون ، او ان شئت قلت : يطرح فيها التقليد ليتحرر فكره من قيوده ، ويكون أكثر استعدادا للبحث الموضوعي ؛ والثانية يكوّن بها صورة عن الكون ، وعن علاقته به ودوره فيه .

فلنشرع فى بيان الخطوة الاولى :

يدعو القرآن الكريم الانسان بادىء ذى بدء الى طرح التقليد وتحرير الفكر من الآراء والمذاهب السابقة الموروثة ، وفى ذلك يقول تعالى : « واذا قيل لهم اتبعوا ما أنزل الله قالوا بل نتبع ما ألفينا عليه آباءنا أو لو كان آباؤهم لا يعقلون شيئا ولايهتدون » (سورة البقرة آية ١٧٠) .

وينعى القرآن على أولئك الذين ألغوا اشخاصهم وعقولهم فعبدوا الأحبار والرهبان بمثل قوله تعالى : « اتخذوا احبارهم ورهبانهم أربابامن دون الله » (سورة التوبة ــ آية ٣١) .

ويعيّر القرآن أولئك الذين عطلوا حواسهم وعقولهم وركنوا الى التقليد الأعمى بانهم كالانعام، بل هم أضل سبيلا ، فيقول تعالى : « لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون » (سورة الاعراف ــ آية ١٧٩) .

ويقول تعالى : « ان شر الدواب عند الله الصم البكم الذين لا يعقلون » (سورة الانفال آية ٢٢) .

وجعل القرآن العلم وحده ــ لا التقليد ــ السبيل الموصل الى ما يعتقده الانسان ويسلك وفقه ، كما يشير اليه قوله تعالى : « ولا تقف ما ليس لك به علم ان السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا » (سورة الاسراء آية ٣٦) .

وكثيراً ما تحدى أولئك المقلدين للعقائد الباطلة الموروثة بمثل قوله تعالى : « قل هاتوا برهانكم ان كنتم صادقين » (سورة البقرة آية ١١١) . وقوله تعالى : « قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ان تتبعون الا الظن وان أنتم الا تخرصون » (سورة الانعام آية ١٤٨) .

وكان من بين التصورات الكونيه والعقائد المنحرفة عند العرب فى الجاهلية تأليه الكواكب ، وعبادة الأصنام ، وتعديد الآلهة ، والايمان بالدهر، وانكار الروح والبعث ، وما الى ذلك . فقد كان العرب ــ خصوصا فى جوف الجزيرة العربية ــ يعبدون الأصنام ويقدسونها ويقدمون اليها القرابين ، وهذا هو ما يعرف بالوثنية . وكانت فى الكعبة أصنام لجميع القبائل ، وكبير الاصنام فيها الصنم المعروف بـ « هبل » . وكان من اصنام العرب أيضا اللات والعزى ومناة . ومن العرب كذلك من كان يعبد الكواكب ويؤمن بالتنجيم ، فكانت حمير تعبد الشمس ، وكنانة القمر ، وهناك قبائل أخرى كان يتوجه بعضها بالعبادة الى المشترى، أو الى الشعرى، أو الى عطارد(٤) .

ولعل أولئك العرب لم يكونوا يتصورون الأصنام خالقة لهذا الكون ، وانما كانوا يؤمنون باله خلقه ، والى هذا يشير صاعد الأندلسى بقوله : « وجميع عبدة الأوثان من العرب موحدة لله تعالى ، وانما كانت عبادتهم لها ضربا من التدين بدين الصابئة فى تعظيم الكواكب والأصنام الممثلة بها فى الهياكل لا على ما يعتقده الجهال بديانات الأمم وآراء الفرق من أن عبدة الاوثان

---

(٤) انظر فى تفصيل هذا : صاعد الاندلسي : طبقات الأمم ، المكتبة الحيدريه بالنجف ١٣٨٧هـ ــ ١٩٦٧م ، ص ٥٦ ــ ٥٧ .

ترى أن الاوثان هى الخالقة للعالم،ولم يعتقد قط هذا الرأى صاحب فكرة ، ولا دان به صاحب عقل،دليل ذلك قول الله تبارك وتعالى : « ما نعبدهم الا ليقربونا الى الله زلفى » (سورة الزمر آية ٣ (٥)) » .

على أنه يجب التنبيه الى أنه ليس من الصواب أن يصف صاعد أولئك العرب بأنهم موحدة لله ، لأن التوحيد الحقيقى لله ينتفى معه اتخاذ الوسطاء والشركاء . واذا كان العرب قد عظموا أوثانهم وعبدوها لتقربهم الى الله زلفى ، فان هذا من قبيل الوثنية المشركة التى حاربها الاسلام حربا لا هوادة فيها ، فالتوحيد الحقيقى هو الذى أشار اليه القرآن على لسان أنبيائه فى مثل قوله تعالى : « اعبدوا الله مالكم من اله غيره » (سورة الاعراف ـ آية ٥٩) .

ومن هنا كان العرب فى جاهليتهم منحرفين فى عقيدتهم عن التوحيد ، وكانت نظرتهم الى الكون ـ حتى مع الاقرار بوجود خالق له ـ نظرة تدل على سطحية فى التفكير ، ولا تخلو من طابع أسطورى يتمثل فى الاعتقاد بأن الأصنام والكواكب تضر وتنفع ، ولذا يتوجه اليها بالعبادة .

وكذلك كان كثير من العرب فى الجاهلية ـ خصوصا داخل الجزيرة ـ تسودهم نزعة مادية شكية، ومن شأن هذه المادية أن تحول بينهم وبين قبول الأفكار الدينية، فكانوا ينكرون مثلا النبوة والبعث لايمانهم بالدهر ، فعرفوا لذلك بالدهرية(٦) .

وقد صور القرآن عقيدتهم فى قوله تعالى :« وقالوا ما هى الا حياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر » (سورة الجاثية ـ آية ٢٤) .

ويقول صاعد الاندلسى مبينا موقف القرآن من الدهرية « وجاء نص القرآن بمخالفتهم (أى الدهرية) فى البعث والنشور ونبوة محمد (ص)، فكان جمهورهم ينكر ذلك ، لا يصدق بالمعاد ، ولا يقول بالجزاء ، ويرى أن العالم لا يخرب ولا يبيد ، وان كان مخلوقا مبتدعا » (٧) .

والواقع أن نظرة الدهرية الى الانسان نظرة مادية خالصة فهى تنظر اليه من خلال واقعه المادى فقط ، وتنظر الى الكون على أنه وان كان حادثا مخلوقا الا أنه أزلى لا يفنى ولا يبيد ، فليس ثمة الا الدهر أو الزمان، وليس هناك من بعث ولا نشور ، ولا حساب ولا جزاء .

---

٥ ـ طبقات الأمم ، ص ٥٧

٦ ـ يذكر المستشرق دى بور فى كتابه «تاريخ الفلسفة فى الاسلام» أن مذهب الدهرية (Zurwanismus) من زرفان ، زروان = دهر) من ديانات الفرس القديمة، وفيه الغيت النظر الاثنينية للكون (Dualismus) ، وذلك بان جعل الزمان الذى لا نهاية له (زرفان = دهر) هو المبدأ الاسمى ، واعتبر هو عين القدر والفلك الاعظم او حركة الافلاك (تاريخ الفلسفة فى الاسلام ، ترجمة الاستاذ الدكتور محمد عبد الهادى أبو ريدة ، الطبعة الثالثة ، القاهرة ١٩٥٤ ، ص ١٢ ـ ١٣)، وربما عرف العرب شيئا عن هذا المذهب عن طريق اتصالهم فى الجاهلية بالفرس . وقد عنى متكلمو الاسلام بالرد على هذا المذهب الذى أصبح مع مرور الزمان فى نظر المسلمين مساويا لانكار الالوهية والحياة الاخرى او القول بالمادية مع انكار الخالق والقول بقدم العالم (تعليق الدكتور ابو ريدة ، نفس المرجع ، ص ١١٩ ـ ١٢٠) . وقد وجدنا لابن رشد كلاما عن الدهرية يصفهم فيه بانهم هم الذين جحدوا الصانع ، ومثالهم كمثل من يرى المصنوعات فلم يعترف بانها مصنوعات بل ينسب ما فيها من الصنعة الى الاتفاق والأمر الذى يحدث من ذاته (الكشف عن مناهج الادلة ، القاهرة ١٣٢٨ هـ ، ص ٤٩) ، وهذا الذى يذكره ابن رشد يذكرنا بآراء بعض الفلاسفة الماديين فى العصر الحاضر .

٧ ـ طبقات الأمم ، ص ٥٧ .

ولم تكن هذه النظرة عندهم وليدة فلسفةأو نفكير منظم ، وانما هى مجرد انطباع عنالكون بدل على سذاجة فى التفكير .

ومن هنا وجدت الدعوة الاسلامية صعوبةكبيرة فى الانتشار أول الامر لما كان موجودا عند العرب من هذه المعتقدات والآراء المادية ، ولما كانمقترنا بها من عناد شديد وميل الى الجدل وعدم التصديق بسهوله ، وهذا نفسر لنا لماذا طولبالرسول (ص) بخوارق العادات ، على نحو ما يشير اليه قوله تعالى : « وقالوا لن نؤمن لك حتىتفجر من الأرض ينبوعا . أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فنفجر الانهار خلالها تفجيرا . أوتسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا . أو يكون لك بيت من زخرف أوترقى فى السماء ولن نؤمن لرقيك حتى ننزل علينا كتابا نقرؤه ، قل سبحان ربى هل كنت الا بشرا رسولا » (سورة الاسراء ــ آية ٩٠ ــ ٩٣) .

ولم يكن طلب خوارق العادات من الرسول(ص) على هذا النحو الا عنادا او صدا عن الدعوة ، فالقرآن نفسه قد انطوى على الآياتالناطقة بصدق الرسول (ص) فيما جاء به وصلاح دعوته للفرد وللمجتمع ، ولو أن أولئكالمعاندين حرروا عقولهم من أوهامها ، ونظروا الى القرآن نظرة عقلية ، لما طالبوا الرسول (ص)بالآيات أو الخوارق ، والى ذلك الاشارة بقوله تعالى : « وقالوا لولا أنزل عليه آيات من ربه قل انما الآيات عند الله وانما أنا نذير مبين . أو لم يكفهم أنا أنزلنا عليك الكتاب يتلى عليهم انفى ذلك لرحمة وذكرى لقوم يؤمنون » (سورة العنكبوت آية ٥٠ ــ ٥١) .

وقد حارب الرسول (ص) فيما حارب منالاعتقادات الجاهليين التنجيم والكهانة والعرافة ، وهى من مظاهر بدائية التفكير التى تتعارض معالعلم الصحيح . فقد نهى الرسول (ص) نهيا صريحا عن اتيان الكهان والعرافين (٨) الذين يزعمون لانفسهم قدرة على الاخبار عن الكوائن فىمستقبل الزمان ، وعلى معرفة الأسرار ومطالعةعالم الغيب،كما أبطل (ص) الايمان بالغيلان(٩) .

ومما له دلالة فى هذا الصدد أيضا أن الرسول (ص) نهى عن الربط بين ظواهر الطبيعة وبين اى اسباب وهمية لا تمت اليها بصلة(١٠) ،فيوم توفى ابنه ابراهيم حدث كسوف للشمس ظنه الناس معجزة تحدث لهذه المناسبة ، فقال(ص) : « أن الشمس والقمر آيتان من آيات الله لا ينكسفان لموت أحد ولا لحياته » .

هذا ، وقد ذكر القرآن الكريم طائفة منالديانات السماوية وغير السماوية التي عرفها العرب فى جاهليتهم ، والتى انحرف بها أصحابهاعن التوحيد الصحيح الى الوان من الشرك

---

(٨) انظر : الحافظ المنذرى : مختصر صحيح مسلم بتحقيقمحمد ناصر الدين الألباني ، سلسلة احياء التراث الاسلامي التي تصدرها وزارة الاوقاف والشئون الاسلامية بدولةالكويت ، الحديث رقم ٣٣٣ فى النهي عن أتيان الكهان ، ورقم ١٤٩٦ فى النهي عن اتيان العراف .

(٩) مختصر صحيح مسلم ، الحديث رقم ١٤٨٩ ، يقولالمحقق : « قال جمهور العلماء : كانت العرب تزعم أن الغيلان فى الفلوات ، وهي جنس من الشياطن تتراءى للناس وتتغول تغولا ، اى تتلون تلونا ، فتضلهم عن الطريق فتهلكهم ، فابطل النبي (ص) ذلك » .

(١٠) قارن هنا ردود ابن حزم الاندلسي على اصحاب التنجيم والسحر ، وعلى أولئك الذين يتصورون الكون تصورا ميثولوجيا وذلك فى الفصل ، جـ ٥ ، ص ٢ وما بعدها، جـ ٢ ، ص ٩٣ وما بعدها ، وهي تدل على علمية التفكير التي يمكن ان تستمد من اصول الاسلام .

والوثنية ، يدلنا على ذلك قوله تعالى : « أن الذين آمنوا والذين هادوا والصابئين والنصارى والمجوس والذين أشركوا ان الله يفصل بينهم يوم القيامة ان الله على كل شيء شهيد » (سورة الحج آية ١٧) . وقوله تعالى : « ان الذين آمنوا والذين هادوا والنصارى والصابئين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم » (سورة البقرة ـ آية ٦٢) .

وتعرض القرآن لذكر مثل هذه الديانات والمذاهب لا بد وان يثير عند المسلم تساؤلات كثيرة حولها ، وحول الفرق بين كل منها وبين العقيدة الاسلامية .

ولما كانت تلك الديانات والمذاهب لها تصوراتها للكون وعلاقة الانسان به ، فانه يمكننا القول بأن القرآن قد فتح أمام العقل بابا واسعا للنظر في الكون نظرة أساسها المقارنة بين ما جاء به وما جاءت به تلك الديانات والمذاهب القديمة .

والقرآن يلجأ دائما الى الحجة العقلية في الرد على المخالفين لعقائده وتفنيد دعاواهم . وحسبنا أن نشير في هذا الصدد ـ على سبيل المثال لا الحصر ـ الى بعض ردود القرآن على مخالفيه :

فمن ذلك رده على مؤلهي الكواكب من الصابئة بمثل هذه الآيات التي تصور حال ابراهيم عليه السلام حين نظر الى الكون واهتدى الى وجود خالق له بعقله ، وهي :

« وكذلك نرى ابراهيم ملكوت السماوات والارض وليكون من الموقنين . فلما جن عليه الليل رأى كوكبا قال هذا ربي فلما أفل قال لا أحب الآفلين . فلما رأى القمر بازغا قال هذا ربي فلما أفل قال لئن لم يهدني ربي لأكونن من القوم الضالين . فلما رأى الشمس بازغة قال هذا ربي هذا أكبر فلما أفلت قال يا قوم اني بريء مما تشركون . اني وجهت وجهي للذي فطر السماوات والأرض حنيفا وما أنا من المشركين » (سورة الانعام آية ٧٥ ـ ٧٩) .

وهذه الآيات الكريمة لا تصلح فقط للرد على مؤلهة الكواكب ، وانما هي ـ في رأي الفيلسوف ابن رشد ـ تشير الى علم خص الله به ابراهيم عليه السلام ، وهو علم النظر في الكون ، واعتبار الموجودات فيه بالعقل(١١) .

ويرد القرآن كذلك على من يعددون الآلهة(١٢) بمثل قوله تعالى : « لو كان فيهما آلهة الا الله لفسدتا » (سورة الانبياء آية ٢٢) .

ويرى بعض المتكلمين أن هذه الآية انما تشير الى الدليل العقلي المعروف عندهم بدليل التمانع ، ومؤداه : لو كان للعالم صانعان ، فعند اختلاف هذين الصانعين ، كأن يريد أحدهما تحريك جسم

---

(١١) فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعة من الاتصال ، القاهرة ١٣١٠ هـ ، ص٢ ـ ٣ .

(١٢) كانت هناك قديما مذاهب تعدد الآلهة ، ابرزها مذاهب المجوس في فارس على اختلاف صورها ، وكانت هذه المذاهب تنطوي على القول بأصلين اثنين مدبرين للعالم : النور والظلمة ، أو الخير والشر ، او يزدان واهرمن . وقد عرض كتاب الفرق من المسلمين لهذه المذاهب القديمة بالرد والتفنيد . انظر عنها : الشهرستاني : الملل والنحل ، القاهرة ١٣١٧ هـ ، بهامش الفصل لابن حزم ، جـ ٢ ، ص٧٢ وما بعدها . وانظر ايضا ردود ابن حزم على هذه المذاهب في الفصل ، جـ ١ ، ص ٣٤ وما بعدها .

والآخر تسكينه ، أو يريد أحدهما احياءه والآخر اماتته ، فاما ان يحصل مرادهما أو مراد أحدهما، أو لا يحصل مراد واحد منهما .

والأول ممتنع ، لأنه يستلزم الجمع بين الضدين ، والثالث ممتنع ، لأنه يلزم خلو الجسم عن الحركة والسكون ، ويستلزم ايضا عجز كل منهما ، والعاجز لا يكون الها .

واذا حصل مراد أحدهما دون الآخر كان هذا هو الاله القادر ، والآخر عاجزا لا يصلح للآلهية(١٣) .

يريد القرآن اذن لعقل الانسان أن يفكر وان يستنبط من انتظام أمر العالم كله وحدة صانعة، فتدبير هذا الكون لا يكون لالهين أو اكثر لما يترتب على ذلك من الاختلال فيه . والى هذا المعنى الأشارة أيضا فى قوله تعالى : « ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من اله اذا لذهب كل اله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون » (سورة المؤمنون آية ٩١) .

ويرد القرآن كذلك على من ينكرون البعث ،أو بعبارة اخرى ينكرون أن يكون لوجود الانسان فى هذا الكون غايه أبعد لا تتحقق الا فى حياة اخرى بعد هذه الحياة ، ويخاطبهم بنوع من الاستدلال المباشر ، وهو انه ما دمتم قد سلمتم بأن الله خلق الانسان أول مرة، فمن التناقض أن لا تسلموا بأنه قادر على خلقه مرة أخرى ، فالله لا يكون خالقا وغير خالق فى آن واحد ، ثم أى الخلقين أصعب، خلق السماوات والارض ام خلق الانسان ؟كل هذا خطاب صريح للعقل يتبين من قوله تعالى :

« أو لم ير الانسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين . وضرب لنا مثلا ونسي خلقه قال من يحيى العظام وهى رميم . قل يحييها الذى أنشأها أول مره وهو بكل خلق عليم . الذى جعل لكم من الشجر الأخضر نارا فاذا أنتم منه توقدون . أو ليس الذى خلق السماوات والارض بقادر على أن يخلق مثلهم، بلى وهو الخلاق العليم . أنما أمره اذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون . فسبحان الذى بيده ملكوت كل شيء واليه ترجعون » (سورة يس آية ٧٧ — ٨٣) .

نخلص مما سبق الى القول بأن القرآن الكريم أراد ان يطهر العقول من الاعتقادات الباطلة الموروثة التى سبقت نزوله كالتصورات الميثولوجية التى تفسر الكون تفسيرا أسطوريا، وكالوثنية والشرك وعبادة الأفراد وتعدد الآلهة ، وتأليه الدهر او الطبيعة ، وانكار الغائية فى الكون وفى حياة الانسان ، وانكار البعث وما الى ذلك .

فاذا تخلص العقل الانسانى عن مثل هذه العقائد والتصورات الباطلة التى لا يقوم عليها دليل او برهان ، استطاع أن يقبل متحررا من كل قيد على النظر فى الكون نظرة موضوعية فاحصة يتوصل منها الى الايمان بوجود خالق له ، والى فهم صلته بهذا الكون وبخالقه ، ورسالته فى هذه الحياة الدنيا .

وهذا يقودنا الى الكلام عن الخطوة الثانية فى المنهج الذى يهدينا القرآن اليه ، وسنحاول أن نلقى فيما يلى مزيدا من الضوء عليها :

● ● ●

الخطوة الثانية فى منهج البحث الكونى تتمثل فى اصطناع الاستدلالين القياسى والاستقرائي .

---

(١٣) شرح العقيدة الطحاوية فى العقيدة السلفية ، المطبعة السلفية بمكة المكرمة ، ١٣٤٩ هـ ، ص ٢٠

على انه يجب ان ننبه بادىء ذى بدء الى أن القرآن ليس كتابا فى المنطق ، ولكنه يحوى على الأصول العامة للدلائل العقلية ، أما تفصيلاتها فليس من وظيفة القرآن أن يتعرض لها ، ويكفى القرآن انه ينبه الى مثل تلك الدلائل الاجمالية ليمضي العقل البشرى بعد ذلك الى وضع تفاصيلها وكشف قوانينها وطرق استخدامها .

ومما يلاحظه القارىء للقرآن أن الخطاب فيه موجه اساسا الى العقول السليمة بأوضح استدلال وأيسره ، والى القلوب الصافية بأبلغ بيان وأوجزه . ولا يعلو عليه فى هذا شيء مما كتب الفلاسفة والمفكرون على اختلاف بيئاتهم وأزمانهم ، بدليل ما أحدثه من الأثر الفكرى الهائل فى حياة البشرية منذ نزول الوحى به الى اليوم .

وقد فطن الى ذلك كبار المشتغلين بالفلسفة والمعقولات من المسلمين ، فذكروا انه قد انطوى على مختلف انواع الحجج والبراهين بحيث لا يمكن أن يزاد عليه فى هذا شيء ، ومن هؤلاء الامام الغزالى اذ يقول : « وأول ما يستضاء به من الأبواب ، ويسلك من طريق النظر والاعتبار ، ما أرشد اليه القرآن ، فليس بعد بيان الله بيان »(١٤)

ويقول الامام فخر الدين الرازى ، احد ائمة الأشعرية من المتكلمين ، فى كتابه « الأربعين » فى الكلام : « بل أقر الكل بأنه لا يمكن أن يزاد فى تقرير الدلائل «العقلية» على ما ورد فى القرآن»(١٥)

والحقيقة أننا لو نظرنا الى القرآن نظرة متأنية لوجدنا انه ينبه العقول الى استخدام أنواع الاستدلال العقلى المختلفة ، مباشرا كان أو غير مباشر . فهو كما يدعو الى استنباط نتيجة من مقدمة او مقدمات ثبتت صحتها فى معرض الاستدلال على العقائد النظرية ، (انظر الآيات من آخر سورة يس آية ٧٧ ـ ٨٣) نراه يدعونا أيضا الى استخدام المشاهدة الحسية واستقراء الجزئيات من عالم الطبيعة ليصل بنا الى معرفة القوانين العامة التى تسير هذه الطبيعة بمقتضاها.

فمن الآيات التى تدل على استخدام القياس العقلى قوله تعالى : « فاعتبروا يا أولى الأبصار » (سورة الحشر ـ آية ٢) .

ويرى الفيلسوف ابن رشد أن الاعتبار المشار اليه فى هذه الآية هو القياس بنوعيه ، العقلى والفقهى(١٦) . فكأن الآية اذن تأمرنا على سبيل الوجوب باستخدام القياس بنوعيه المشار اليهما. وفى الحقيقة أن فهم ابن رشد لمعنى الاعتبار فى هذه الآية ليس غريبا ، لأن الاعتبار هو « النظر فى الحكم الثابت لأى معنى ثبت ، والحاق نظيره به ، وهذا عين القياس »(١٧) ، على حد تعبير الجرجانى فى « التعريفات » .

---

(١٤) احياء علوم الدين ، القاهرة ١٣٣٤ هـ ، جـ ١ ، ص ٩٣ .

(١٥) بدر الدين الصنعاني : ترجيح اساليب القرآن على أساليب اليونان ، ص ١٧

(١٦) القياس لغة : التقدير ، يقال قست النعل بالنعل اذا قدرته وسويته ، وهو عبارة عن رد الشيء الى نظيره (تعريفات الجرجاني ، مادة : « القياس ») والقياس عند المناطقة اصطلاحا هو قول مؤلف من قضايا اذا سلمت لزم عنها لذاتها قول آخر . ومن أمثلة القياس العقلي قولنا : كل جسم مؤلف ، وكل مؤلف حادث ، فلزم ان كل جسم حادث ، ومن أمثلة القياس الفقهي قولنا : كل نبيذ مسكر ، وكل مسكر حرام ، فلزم ان كل نبيذ حرام (المستصفى للغزالي ، جـ ١ ، ص ٣٨ ـ ٤٢) .

(١٧) تعريفات الجرجاني ، مادة : « الاعتبار » .

ومن الآيات التى تدل على استخدام الاستقراء ، والنظرة العلمية الفاحصة عن الأشياء وكيف تتركب ، قوله تعالى : « أفلا ينظرون الى الابل كيف خلقت ، والى السماء كيف رفعت والى الجبال كيف نصبت ، والى الارض كيف سطحت » (سورة الغاشية ، آية ١٧ — ٢٠) .

وتأمل كلمة « كيف » فى هذه الآيات لترى أنها تعبر عن روح العلم الحديث كله ومنهجه . ذلك أن العلم — فى مفهوم علماء مناهج البحث المحدثين — هو اجابة عن السؤال « كيف » ، وليس اجابة عن السؤال « لماذا » . بعبارة أخرى العلم يعنى ببيان كيف تتركب الظاهرة ، ولا يعنى بالبحث عن الغاية منها .

فالقرآن حين يدعونا الى البحث فى كيفية خلق الحيوان والكواكب والأرض انما يمدنا بالمنهج الصحيح للبحث الاستقرائي فى علوم شتى كعلوم الحياة والفلك والجيولوجيا والجغرافيا وغيرها ، دون أن يكون القرآن نفسه كتابا يتناول موضوعات هذه العلوم الجزئية .

ومما له دلالة فى الصدد أيضا قول الله تعالى : « ان فى خلق السماوات والارض واختلاف الليل والنهار والفلك التي تجرى فى البحر بما ينفع الناس وما أنزل من السماء من ماء فأحيا به الأرض بعد موتها وبث فيها من كل دابة ، وتصريف الرياح والسحاب المسخر بين السماء والارض لآيات لقوم يعقلون » (سورة البقرة ، آية ١٦٤) . فهذه الآية الكريمة تدلنا على أن افراد البشر الذين يعقلون — أى يستخدمون عقولهم استخداما سليما — هم الذين ينظرون فى خلق السماوات والارض ، وفى الظواهر الكونية على اختلافها وهم الذين يربطون فى نظرتهم تلك بين الأسباب والمسببات فيعرفون كيف خلقت السماوات والارض ، وكيف يتعاقب الليل والنهار ، وكيف تسير السفن فى البحار ، وكيف ينزل المطر ، وما هي عوامل نزوله ، وكيف يرتبط بعضها بالبعض الاخر ، ويعرفون كيف تحيا الدواب على هذه الارض وعلل حياتها ، وما الى ذلك .

وينبه القرآن الى ان النظام الكوني مطرد السنن له قوانين لا تتبدل وهي ما نصل اليه بالاستقراء العلمي القائم على المشاهدة الحسية ، والى ذلك الاشارة بمثل قوله تعالى : « لا الشمس ينبغي لها أن تدرك القمر ولا الليل سابق النهار وكل فى فلك يسبحون » (سورة يس ، آية ٤٠) .

وكذلك الاجتماع البشرى له قوانين لها نفس الاطراد والثبات ، ويمكن معرفة ذلك بالاستقراء التاريخي ، والى ذلك الاشارة بمثل قوله تعالى : « ان الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم » (سورة الرعد ، آية ١١) سنة الله التى قد خلت من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا » (سورة الفتح ، آية ٢٣) ، « فطرة الله التى فطر الناس عليها لا تبديل لخلق الله » (سورة الروم ، آية ٣٠) .

على أن الانسان لا يستطيع أن يصل من التأمل فى الكون الى معرفة نظامه وقوانينه الا اذا وثق بنفسه أولا ، وآمن بأن الكون المشاهد خاضع لادراكه وبحثه ، وبأن ظواهره ليست بالشيء المبهم الغامض الذى لا يفسر ، وبأن فى مقدوره الاستفادة من الكون واستغلال خيراته على أوسع نطاق لتأمين حياته ورفاهيتها .

من اجل هذا ذكر القرآن للانسان أن الكون كله مسخر له ، وتأمل فى قوله تعالى : « وسخر لكم ما فى السماوات وما فى الارض جميعا منه » (سورة الجاثية ، آية ١٣) ، وقوله تعالى « وسخر لكم الليل والنهار والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون وماذرأ لكم فى الارض مختلفا الوانه ان فى ذلك لاية لقوم يذكرون . وهو الذى سخر البحر لتأكلوا منه لحما طريا

وتستخرجوا منه حلية تلبسونها وترى الفلك مواخر فيه ولتبتغوا من فضله ولعلكم تشكرون والقى فى الارض رواسى أن تميد بكم وأنهارا وسبلا لعلكم تهتدون . وعلامات وبالنجم هم يهتدون أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون . وان تعدوا نعمة الله لا تحصوها أن الله لغفور رحيم (سورة النحل ، آية ١٢ ـ ١٨) ، لترى أن توجيه القرآن فى هذا الصدد مضاد تماما للتصورات الكونية الميثولوجية القديمة التي جعلت الانسان البدائي يستشعر الخوف من الكون ، ويعتبر خارجا تماما عن نطاق عمله وقدرته ، ويفسر ظواهره المختلفة بعلل وهمية خيرة أو شريرة أو آلهه يسترضيها بألوان من الطقوس البدائية .

أن تأكيد القرآن على أن الكون كله مسخر للانسان هو فى نفس الوقت تأكيد على روح المنهج العلمي الصحيح الذى يحاول دائما استكشاف ماهو مجهول من هذا الكون وظواهره على أساس من الثقة بقدرة الانسان وبالعلم فى مواجهة الطبيعة .

وثمة ملاحظة هنا على جانب كبير من الآهمية وهى أنه حينما يكون الحافز الى الاستفادة من الكون بمنهج العلم هو عقيدة الانسان الدينية . ورغبته فى التقرب الى الله ، والظفر بثوابه فى حياة أخرى ، فانه يكون حافزا قويا للغاية . ومن الآيات القرآنية ذات الدلالة العميقة فى هذا الصدد قوله تعالى : « أولم ينظروا فى ملكوت السماوات والأرض وما خلق الله من شيء وأن عسى أن يكون قد اقترب أجلهم فبأى حديث بعده يؤمنون » (سورة الاعراف ، آية ١٨٥) .

لقد أعتبر الله تعالى العلم بالمخلوقات على اختلافها من أهم الاعمال الصالحة التي يجب على المسلم أن يحسب لها حسابا فى ميزان أعماله فى الحياة الأخرى ، فعليه اذن أن يبذل قصارى جهده من أجل استكناه الكون وما فيه من موجودات ، وذلك قبل أن يفاجئه أجله وهو أغفل ما يكون .

ولهذا ذهب بعض علماء العقائد فى الاسلام الى حد القول بأن الاستدلال العقلى من الأصول المقررة فى الاسلام ، فالى جانب المعتزلة الذين أوجبوا معرفة الله بالعقل ، نجد الاشعرية أيضا يوجبون على كل مكلف الاستدلال على وجود الله بعقله ، ويقولون : لا يكون مسلما الا من استدل (١٨) .

ويمكننا القول مما سبق كله بأن القرآن الكريم قد حث الانسان على اصطناع منهج العلم الذى يتلخص فى النظر الى الكون بالقياس والاستقراء ، أو بهما معا (١٩) من أجل الوصول الى معرفة قوانينه العامة ، ثم مواصلة السير بعد ذلك الى معرفة الله .

ويمكننا أن نوضح ذلك بالرسم البياني التالي :

النظر الى الكون (السماوات والارض) ← استدلال استقرائي ← معرفة الكون وقوانينه العامة ← استدلال قياسي ← معرفة الله (صانع الكون

---

(١٨) ابن حزم : الفصل فى الملل والاهواء والنحل ، جـ ٤ ، ص ٣٥ .

(١٩) المنهج العلمي لا يكمل الا باستخدام الاستقراء والقياس معا ، اذ انه بعد أن يتوصل العالم من استقراء الجزئيات عالم الطبيعة الى القانون العام او القانون العلمي ، يعود فيطبق هذا القانون على جزئيات جديدة مستخدما القياس فالعالم لا غنى له عن استخدام الاستدلالين الاستقرائي والقياسي معا .

هناك اذن مرحلتان يسير فيهما الناظر الى الكون :

المرحلة الاولى يستخدم فيها الناظر استدلالا استقرائيا يكشف به عن الأسباب والمسببات ، ويتوصل منه الى صياغة القوانين العامة التي تخضع لها الموجودات .

والمرحلة الثانية يستخدم فيها تفكراً عقلياً أساسه الاستدلال القياسى ، وينتهي منه الى اثبات وجود صانع مدبر للكون عن طريق مايشاهده فيه عن غائية الظواهر التي لا نفسرها له المصادفة .

وبهذا ينطلق الناظر من معرفة المصنوعات الى معرفة الصانع ، و « كلما كانت المعرفة بصنعتها أتم كانت المعرفة بالصانع أتم » (٢٠) على حد تعبير ابن رشد .

والى هذا المعنى نفسه يشير أحد العلماء المعاصرين وهو البرت ماكومب ونشتر بقوله : « ان الانسان لا يستطيع أن يدرس أعمال أى صانع من الصناع دون أن يحيط بقدر من المعلومات عن الصانع الذى أبدع تلك الأعمال » وكذلك نجد أننا كلما تعمقنا فى دراسة أسرار هذا الكون ازددنا معرفة بطبيعة الخالق الأعلى الذى أبدعه (٢١) .

ولقد أشار القرآن الى المرحلتين اللتين ذكرنا فى قوله تعالي : ـ

« ان فى خلق السماوات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لاولى الألباب . الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار » (سورة آل عمران آية ١٩٠ ـ ١٩١) .

وقد يقف بعض الناظرين عند المرحلة الاولى ، ولا يتجاوزونها الى الثانية ، وهؤلاء « يعلمون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون » (سورة الروم آية ٧) ، انهم قد وصلوا الى منتصف الطريق ، وفاتهم الغرض البعيد من البحث فى آيات الله الكونية فكانوا بذلك محجوبين عن الحقيقة ، محصورين فى دائرة المادة لا يستطيعون الخروج منها الى ما وراءها آثروا النفع العاجل على النفع الآجل ، وشغلوا بالوسائل عن الغايات « ذلك مبلغهم من العلم » (سورة النجم ، آية ٣٠) .

وما أجمل هذا المعنى حين يعبر عنه ابن عطاء الله السكندرى فى « الحكم » بقوله : « الكائن فى الكون ولم تفتح له ميادين الغيوب مسجون بمحيطاته ، ومحصور فى هيكل ذاته » (٢٢) .

---

(٢٠) فصل المقال ، ص ٢ .

(٢١) انظر مجموعة مقالات لبعض العلماء المعاصرين نشرها جون كلوفر مونسما في كتاب بعنوان : « الله يتجلى في عصر العلم »، الترجمة العربية، دار احياء الكتب العربية، القاهرة، ص١٠٧ .

(٢٢) شرح الرندى على الحكم ، القاهرة ١٢٨٧ هـ ، جـ ٢ ، ص ٨٧ .

اما ما يراه البعض من ضرورة الموضوعية والاعتماد على التجربة الحسية واخضاع الظواهر للقياس الكمي فى البحث العلمى ، فهذا ولا شك بعد ذلك أن يسير العالم من المرحلة الاولى ، وهي العلم ، الى المرحلة الثانية ، وهي الايمان ، وذلك اذا أراد أن يحقق انسانيته ، وان يجعل لحياته معنى . ان نهاية العلم فى الحقيقة هي بداية الايمان الصحيح لا الايمان التقليدى ، وتأمل عمق المعنى فى قوله تعالى : « قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون » (سورة الزمر ، آية ٩) ، وقوله تعالى : «انما يخشى الله من عباده العلماء» (سورة فاطر ، آية ٢٨) .

(٢)

والآن بعد أن تبين لنا اتفاق الاسلام مع العلم روحا ومنهجا ، وانه يوجه العقل البشرى الى خطوات منهج متكامل للكشف عن أسرار الكون وما فيه من كائنات وقبل ان نمضي فى الحديث عن صورة الكون ومكان الانسان فيها فى القرآن الكريم ، لنرى الى اى حد تتفق مع تلك التى يمدنا العلم الحديث بها ، نحب أن ننبه القارىء الى حقيقة هامة ، وهي أن القرآن الكريم ليس كتاب علم يشتمل على نظريات فى علوم الكون .. ان كل ما يشتمل عليه القرآن متعلقا بالكون ونشاته وتطوره لا يعدو الحقائق العامة المجملة التي ياتي العلم بعد ذلك ليكشف عن تفصيلاتها . ومن هنا لا نرى أن يقحم الدين بمناسبة وغير مناسبة فى تفسير الظواهر الكونية ، اذ ليس هذا من شان الدين .

ونذكر هنا قول الرسول (ص) : « أنتم أعلم بشئون دنياكم » .

والحقيقة هي أن القرآن حينما يشير الى الظواهر الكونية انما يشير اليها على سبيل ايقاظ العقل من سباته ليتفهم هذه الظواهر ويفسرها التفسير العلمي الصحيح فعباراته أشبه شيء بالومضات القوية التى تنير أمام هذا العقل السبيل الى التوصل الى علم صحيح بالكون وقوانينه .

ومن المعروف ان العقل البشرى يثير بطبيعته تساؤلات عدة حول الكون :

هل الكون حادث أو قديم ؟ ، واذا كان حادثا فكيف حدث ؟ وهل يتناهى أو لا يتناهى ؟ وهل توجد أكوان أخرى أو لا توجد ؟ وما هي علة ما فى هذا الكون من النظام والاحكام ؟ وهل له غاية ؟

كان لا بد للقرآن الكريم من أن يلبي احتياجات البشر العقلية فى الاجابة على مثل تلك التساؤلات .

لقد قرر القرآن الكريم حقائق كثيرة تتعلق بالكون أهمها انه حادث مخلوق ، وكل ما فيه من الكائنات له بداية ونهاية ، وليس ثمة موجود ازلي أبدى الا الله « الخالق البارىء المصور » (سورة الحشر آية ٢٤) ، « بديع السماوات والارض » (سورة البقرة آية ١١٧) و « هو الأول والآخر » (سورة الحديد آية ٣) ، واليه ترجع الموجودات كلها من حيث هو علتها الاولى ، لقوله تعالى : « وان الى ربك المنتهى » (سورة النجم آية ٤٢) ، والمتصفح للقرآن يرى انه يقرر فى وضوح لا لبس

فيه الثنائية بين الله والعالم (٢٣) . ومن الحقائق عن الكون أنه غير محصور فى مداركنا ، كما يشير القرآن الى أن هناك عوالم ومخلوقات اخرى لا نعلم نحن عنها شيئا ، فيقول تعالى : « ويخلق مالا تعلمون » (سورة النحل آية ٨) .

وكيف يمكن أن نحيط بالفضاء الخارجي والعوالم التي من فوقنا لا حصر لها والمسافات التي بينها لا يتصورها عقل انسان ؟ اننا ننتمي الى كرة الارض ، وهي تنتمي الى مجموعتنا الشمسية ، ومجموعتنا الشمسية تقع فى مجرة تحتوى على ملايين المجموعات الشبيهة بها ، وفى الكون ملايين المجرات ! والمسافات بينا وبين النجوم تقاس أحيانا بآلاف السنين الضوئية ، وسرعة الضوء ٣٠٠٫٠٠٠ كيلو متر فى الثانية الواحدة !

ان الانسان اذا تأمل هذا الكون لا يمكن له الا أن يسلم بأن نسبته ، بكرته الارضية كلها ، الى العوالم الاخرى التي خلقها الله نسبة توجب تلاشيه !

هذا اذا نظرنا الى العالم الأكبر (Macrocosme) ، أما اذا نظرنا الى الانسان نفسه فسنجده عالماً قائماً بذاته ، وهو لا يزال مجهولا من نفسه الى الآن ، ولم يدرك بعد أسرار كثير من وظائف جسمه وعقله ، ولا يعرف ما هو مصيره بعد الموت بامكانياته المادية التي يفتر بها .

أما اذا نظرنا الى عالم الأشياء المتناهية فى الصغر (Microcosme) فسنجد الذرة من حيث تكوينها شبيهة بالمجموعة الشمسية ، وسنجد كائنات ذات خلية واحدة لها جميع وظائف الحياة ، يقول سيسل هامان : « عندما نذهب الى المعمل ونفحص قطره من ماء مستنقع تحت المجهر لكي نشاهد سكانها ، فاننا نرى احدى عجائب هذا الكون : فتلك الأميبا تتحرك فى بطء ، وتتجه نحو كائن صغير فتحوطه بجسمها فاذا به فى داخلها ، واذا به يتم هضمه وتمثيله داخل جسمها الرقيق ، بل اننا نستطيع أن نرى فضلاته تخرج من جسم الأميبا قبل أن نرفع أعيننا عن المجهر . فاذا لاحظنا هذا الحيوان فترة أطول ، فاننا نشاهد كيف ينشطر جسمه شطرين ،

---

(٢٣) على الرغم من وضوح هذه الثنائية بين الله والعالم فى نصوص القرآن ، ذهب بعض مفكرى الاسلام الى القول بفيض العالم أو صدوره عن الله ، وهذا هو عين مذهب أفلوطين السكندرى فى الفيض او الصدور (Emanation) ومن هؤلاء بعض فلاسفة الاسلام وعلى الأخص الفارابي فى نظريته في فيض العقول ، وترتب الموجودات عن الأول . ومع القول بالفيض او الصدور تنتفي فكرة الخلق من العدم (Création ex nihilo) وكذلك تصور بعض غلاة الشيعة كالاسماعيلية العالم على انه سلسلة من الفيوضات عن المبدأ الاول على نحو خاص يتفق مع نظريتهم فى الامامة ، وكذلك ذهب متفلسفة الصوفية من اصحاب وحدة الوجود (Pantheism) كابن عربي الى القول بان العالم موجود بواسطة الحقيقة المحمدية التي هي أول تعين فاضت عنه سائر التعينات الأخرى مادية كانت او روحية (انظر كتابنا : علم الكلام وبعض مشكلاته ، القاهرة ١٩٦٦ ، ص ٩٣) .

وجميع القائلين بالصدور من مفكرى الاسلام يعمدون الى تأويل نصوص القرآن تأويلات فلسفية خاصة لتبدو متفقة مع ما يذهبون اليه من مذاهب ، والحديث عن هذه التأويلات يخرجنا عن موضوع هذا البحث .

اما المتكلمون من المسلمين فقد عبروا عن الثنائية بين الله والعالم قائلين : « ليس فى الوجود الا الخالق وخلقه » (الفصل لابن حزم ، جـ ٥ ، ص ٩٩) ، وكل ما فى الكون دون الله جواهر واعراض (نفس المرجع ، جـ ٣ ، ص ٩٠ ـ ٩١ ص ٩٤ ، جـ ٥ ص ٤٩) وقد أوجده الله على سبيل الاختراع والابداع واحداث الشيء من لا شيء بمعنى اخراجه من العدم الى الوجود (نفس المرجع ، جـ ٣ ، ص ٦٤) .

واما المعتدلون من صوفية الاسلام من أهل السنة ، فيقولون ان الثنائية بين الله والعالم قائمة ، ولكن الصوفي فى حال الفناء عن ذاته يشهد الوحدة فى الوجود كله شهوداً ذوقيا بمعنى تلاشى الموجودات بالقياس الى الله كما يتلاشى ضوء الشمعة فى ضوء الشمس . وهذه الوحدة الشهودية قائمة على أساس الذوق والعيان لا الاستدلال والبرهان . قارن كتابنا : ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه ، الطبعة الثانية القاهرة ١٩٦٩ ، ص ٣٠٤ وما بعدها .

ثم ينمو كل من هذين الشطرين ليكـون حيواناً جديدا كاملا ، تلك خلية واحدة تقوم بجميـع وظائف الحياة التى تحتاج الكائنات الكبيرة الأخرى فى أدائها الى آلاف الخلايا أو ملايينها. لا شك فى أن صناعة هذا الحيوان العجيب الذى بلغ من الصغر حد النهاية تحتاج الى أكثر من مصادفة » (٢٤).

الحقيقه أن النظر فى الكون أو الآفاق البعيدة بعداً شاسعاً ، والنظر فى الانسـان والكائنـات الدقيقـة جدا ، يدلنا على آيات الخالـق التي لا حصر لها ، والتى ستتجلى للانسان دائماً وأبدا، وصدق الله تعالى اذ يقول « سنريهم آياتنا فى الآفاق وفى أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد » (سورة فصلت ، آية ٥٣) .

واذا كنا لم نحط بعد علما بالكون المحسوس ولا بأنفسنا ، فكيف نزعم ادراك كنه الخالق وما أعمق المعنى فى قوله تعالى : « لا تدركه الأبصار وهو يدرك الأبصار » (سورة الانعام ، آية ١٠٣).

واذا تبين هذا كله نقول : اننا لا نستطيع بحسب القرآن ولا بحسب ما توصل اليه العلم الحديث أن نجزم بأن الكون يتناهى أو لا يتناهى ، وكل ما نعلم عنه هو أنه غير محصور فى مداركنا .

واذا كان الكون بحسب ما ورد فى القرآن حادثاً ، وله محـدث هو الله ، فمن الطبيعي أن القول بأن الكون قد نشأ اتفاقا أو عـن طـريق المصادفة يكون متعارضا مع القرآن ، ومع ما جاء به من عقائد . بل انه يتعارض مع العلم ذاته ، يقول جون أدولف بوهلر : « عندما يطبق الانسان قوانين المصادفة لمعرفة مدى احتمال حـدوث ظاهرة من الظواهر فى الطبيعة ، مثل تكون جزيء واحد من جزيئات البروتين مـن العنـاصر التي تدخل فى تركيبه ، فاننا نجد عمر الارض ، الذى يقدر بما يقرب من ثلاثة بلايين من السنين أو أكثر لا يعتبر زمناً كافياً لحدوث هذه الظاهرة وتكوين هذا الجزيء عن طريق المصادفة . ان ذلك لا يمكن أن يحدث الا اذا كانت هنالك قوة موجهة تهدف الى غاية محدودة ، وتعيننا على أدراك كيف يخرج النظام من الفوضى » (٢٥) .

ومما يظهرنا القرآن الكريم بعد هذا عليه أن العوالم المتعددة التي يشتمل عليها الكون لم تخلق فى وقت واحد ، فمنها ما هو سابق ومنها ما هو لاحق .

يقول تعالى : « وهو الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام (٢٦) وكان عرشه على الماء» (سورة هود ، آية ٧)

وقد تساءل بعض المسلمين فى عصر النبي (ص) عن بداية العالم ، فذكر البخارى وغيره قال : أهل اليمن لرسول الله (ص) جئنـاك لنتفقه فى الدين ، ونسألك عن أول هذا الامر ، فقال : « كان الله ولم يكن شيء قبله أو معه أوغيره وكان عرشه على الماء » .

ويقول شـارح العقيدة الطحاوية موضحاً المقصود من هذا الحديث : « ان قول أهل اليمن : جئنا نسالك عن أول هذا الامر ، وهو أشارة الى حاضر موجـود مشهور (أى الكـون المرئي) . والأمر هنا بمعنى المأمور ، أى الذى كونه اللـه بأمره .

---

(٢٤) الله يتجلى فى عصر العلم ، ص ١٤٣ .

(٢٥) الله يتجلى فى عصر العلم ، ص ١٠٢ ـ ١٠٣ .

(٢٦) ليس المقصود هنا باليوم اليوم المعروف لنا ، فهناك نسبية في حساب ايام الله اشار اليها القرآن نفسه ، فمرة يذكر على انه الف سنة (سورة الحج ، آية ٤٧) ، ومرة اخرى يذكر على انه خمسون الف سنة مما نعرف (سورة المعارج ، آ ٤) ، وقد يكون اكثر من ذلك حسب ما يقدر الله لـه .

« وقد أجابهم النبي (ص) عن بدء هذا العالم الموجود لا عن جنس المخلوقات (التى منها ما يتعلق بعالمنا ومنها مالا يتعلق به) لأنهم لم يسألوه عن ذلك .

« وقد أخبرهم عن خلق السماوات والارض .. ، فظهر أن مقصوده اخباره اياهم ببدء السماوات والأرض وما بينهما ، وهى المخلوقات التي خلقت فى ستة أيام ، لا ابتداء خلق ما خلقه الله قبل ذلك .

« ولا يظن أن معناه (أى معنى الحديث) الاخبار بتعطيل الرب تعالى دائماً عن الفعل حتى خلق السماوات والارض » .

« وأيضا فقوله : « كان الله ولم يكن شيء قبله أو معه أو غيره وكان عرشه على الماء » لا يصح أن يكون المعنى أنه تعالى موجود وحده لامخلوق معه أصلا ، لأن قوله : « وكان عرشه على الماء » يرد ذلك ، فان هذه الجملة ، وهي « كان عرشه على الماء » ، أما حالية أو معطوفة ، وعلى كلا التقديرين فهو ، « أى العرش » ، مخلوق موجود فى ذلك الوقت . فعلم أن المراد من قول الرسول (ص) : ولم يكن شيء من العالم المشهود » (٢٧) .

لقد اثبتنا هذا الكلام لشارح العقيدة الطحاوية بنصه لأنه على جانب كبير من الأهمية ، فهو يوضح لنا أن فى القرآن والسنة ما يفيد أن ثمة خلقاً آخر كان موجوداً قبل خلق هذا الكون الذى نراه ، ومنه تشكل هذا الأخير بما فيه . وهذا يعني بعبارات أخرى أن هذا الكون لم يكن على ما هو عليه ، ولم يتم خلقه بصورة مكتملة دفعة واحدة ، بل كان هناك ترتب زمانى فى خلق الكائنات ، بل وتطور فى عملية الخلق ذاتها . وهذا متفق تماما مع ما يذهب اليه العلم الحديث الذى يحدد لأجرام المجموعة الشمسية وللأرض أعماراً بواسطة حساب الاشعاع ، ويعين أزمانها التى نشأت فيها على سبيل التدريج (٢٨) .

---

(٢٧) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٦٦ – ٦٧ .

(٢٨) في بحث طريف لزميلنا الدكتور زغلول النجار الأستاذ المساعد بقسم الجيولوجيا بكلية العلوم بجامعة الكويت ، عنوانه « محاولات الانسان لتقدير عمر الارض » معلومات وافية عن طريقة الاشعاع في حساب عمر الارض وأجرام المجموعة الشمسية، نقتطف منه هذه النتائج التى توصل اليها العلماء في هذا الصدد . يقول سيادته : ان اقصي حد لتكوين العناصر فى مجرتنا هو ٧٠٠٠ مليون سنة ، ومن ذلك استنتج العلماء ما يلى :

اولا : ان العناصر فى مجرتنا قد تكونت فى الفترة من ٧٠٠٠ الى ٦٥٠٠ مليون سنة .

ثانيا : ان الشمس قد تكثفت على هيئتها الحالية منذ ٦٠٠٠ مليون سنة .

ثالثا : ان الكواكب الابتدائية قد تحولت الى كواكب عادية منذ حوالي ٥٠٠٠ مليون سنة .

رابعا : ان الفصل الكيميائي فى اجسام الكواكب قديم منذ ٤٥٠٠ مليون سنة .

خامسا : ان القشرة الخارجية للارض قد تكونت بصورة دائمة منذ ٤٠٠٠ مليون سنة .

سادسا : ان اقدم اثر للحياة ظهر على الارض منذ ٣٠٠٠ مليون سنة .

سابعا : ان الحياه ظهرت بصورة مزدهرة منذ ٦٠٠ مليون سنة ، بينما ظهر الانسان على سطح الارض منذ مليون سنة » ويقول الدكتور زغلول : « وبذلك استطاع الانسان الاجابة على ذلك السؤال المحير : منذ متى كانت الارض ، اجابة مدعمة بالاستنتاجات المنطقية المجردة عن الخرافات والحدس والتخمين ، فكانت الارقام السابقة . والعلم لا يدعى ان هذه الارقام لا تقبل التغيير ، فقد تؤكدها الدراسات المستقبلة او تحورها ولكن الحقيقة الثابتة هى ان الارض ليست ازلية بل مستحدثة » محاضرات الموسم الثقافى لجامعة الكويت ، ١٩٦٨ – ١٩٦٩ ، المطبعة العصرية بالكويت ، ص ٥٠٣ .

ومما يدلنا أيضا على أن الكون قد خلق بمافيه من عوالم متعددة بالتدريج وليس دفعة واحدة قوله تعالى : « الحمد لله رب العالمين » (سورة الفاتحة ، آية ٢) .

ويبين لنا شارح العقيدة الطحاوية أن من بين المعاني التي تتضمنها كلمة « رب » « التربية ، وهي تبليغ الشيء كماله بالتدريج » (٢٩) .

وهذا هو عين ما يفهم من التطور (Evolution) فى الخلق، اى أن الخلق لا يتم دفعة واحدة، وانما على مراحل ، من الأدنى الى الأعلى ، أو من الأقل كمالا الى الأكثر كمالا . ولعل هذا المعنى يفهم ايضا من قوله تعالى : « يزيد فى الخلق ما يشاء ان الله على كل شيء قدير » (سورة فاطر ، آية ١) .

ففكرة التطور ذاتها ليست مخالفة للقرآن وانما الذى يخالفه هو القول بأن هذا التطور المشاهد فى الكائنات علويها وسفليها يتم عن طريق المصادفة وليس عن صانع مدبر حكيم .

والظاهر من القرآن الكريم بعد ذلك أن الكون كان وحدة متصلة تكثرت بعد ذلك الموجودات عنها . ولعل هذا المعنى يستفاد من قوله تعالى : « أو لم ير الذين كفروا أن السماوات والأرض كانتا رتقا ففتقناهما » (سورة الانبياء ، آية ٣٠) .

أما المادة التى تشكلت منها الأجرام السماوية فتوصف فى القرآن بأنها « دخان » . يقول تعالى : « ثم استوى الى السماء وهي دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا اتينا طائعين » (٣٠) .

واما مادة الكائنات الحية التي منها نشأت وتطورت فهي « الماء » لقوله تعالى « وجعلنا من الماء كل شيء حي » (سورة الانبياء ، آية ٣٠) .

ومما يستوقف الذهن البشرى حقيقة اشارة القرآن الى أن أصل الكائنات جميعا واحد ، وهي تتكون من زوجين اثنين ، يقول تعالى : « ومن كل شيء خلقنا زوجين » (سورة الذاريات آية ٤٩) ، ويقول تعالى : « سبحان الذى خلق الازواج كلها مما تنبت الارض ومن انفسهم ومما لا يعلمون » (سورة يس ، آية ٢٦) .

وقد يطمئن عقل الانسان الى معاني مثل هذه الآيات بعد أن اكتشف العلم الحديث وحدة التركيب الذرى للكائنات على اختلافها ، وأن الذرة الواحدة تتكون من الكترون وبروتون .

وقد صور لنا الفيلسوف المعاصر برتراندرسل العالم الطبيعى بعد اكتشاف أينشتين

---

(٢٩) شرح العقيدة الطحاوية ، ص ٦٨ .

(٣٠) سورة فصلت ، آية ١١ ، ومن الافتراضات العلمية الآن انه فى اول تاريخ مجرتنا كانت هناك سحابة من غبار ذى تركيب كونى يشبه السديم ، واخذت واحدة من سحابات عديدة تتكثف على هيئة نجوم تشبه الشمس بينما دار حولها قرص من غبار وغاز سرعان ما تكسر الى دوامات ذوات حجوم وترتيب مختلف فى داخل اى منطقة نصف قطرية يزداد حجمها كلما بعدت عن الشمس وبالتحام هذه الدوامات عند التقائها اصبحت كلا منفصلة من الغاز على ابعاد نصف قطرية من الشمس . وقد اطلق العلماء على هذه الكتل المنفصلة اسم الكواكب الابتدائية .

(انظر الدكتور زغلول النجار : محاولات الانسان لتقدير عمر الارض ، محاضرات الموسم الثقافى ١٩٦٨ ـ ١٩٦٩ ، لجامعة الكويت ، ص ٥٠٢) .

لنظريه فى النسبية «٣١» قائلا : « درسنا العالم الطبيعي فوجدنا ان المادة عند العلم الحديث قد فقدت صلابتها وعنصريتها اذ حللها العلماء الى مجموعات ذرية ، كل مجموعة منها تنحل الى ذرات ، وكل ذرة تعود بدورها فتنحل الى كهارب موجبة وكهارب سالبة » (٣١) .

ولعل من الآيات القرآنية التي اتضح معناها على ضوء ما وصلت اليه الفيزياء المعاصرة من هذه النتائج ، قول الله تعالى : « وترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب صنع الله الذى أتقن كل شيء » (سورة النمل ، آية ٨٨) .

فالجبال وما اليها من الأجسام المادية مدركة لنا على أنها ثابتة صلبة ، وليس الامر كذلك ، فهي عبارة عن عدد هائل من الذرات المنطوية على كهارب موجبة وأخرى سالبة ، مردها الى اشعاعات فهي لذلك أشبه شيء بالسحاب من حيث أنه عارض ومتخلخل . يقول برتراند رسل « ثم مضى العلماء فى التحليل فحللوا هذه الكهارب نفسها (التى تتكون منها الذرة) الى اشعاعات ..) وللفيزياء النظرية جانب آخر هو نظرية النسبية ، وهي نظرية ذات نتائج فلسفية هامة ، منها تحويل العالم الطبيعي الى متصل من الحوادث ذى اربعه أبعاد بعد ان كان سلسلة من حالات ذوات ثلاثة ابعاد لعالم مؤلف من قطع من المادة لها صلابة وثبات » ، ثم هو يقول بعد ذلك : « وليس فى علم الفيزياء ما يبرهن على أن الخصائص الذاتية للعالم الطبيعي تختلف عن خصائص العالم العقلي ! » (٣٢) .

ويبين عالم الطبيعة أدوين فاست كيف أن النظر فى المادة التى منها نشأ الكون نظرة علمية تحليلية يؤدى بنا فى النهاية الى الايمان بوجود الله قائلا :

« وعندما تحاول العلوم أن تفسر لنا منشأ الكون نجدها تبين لنا فى ضوء ما لدينا من المعلومات عن الطبيعة النووية كيف تتفاعل الجزيئات الأساسية لكي تكون لنا جميع العناصر المعروفة فجميع العناصر التي يتألف منها هذا الكون تبدأ ببروتونات لها خواص معينة وقوة جاذبة تجعلها تنضم بعضها الى بعض .

« أما كيف نشأت هذه البروتونات ذاتها ، ولماذا كان لها هذه الصفات بالذات ، فان ذلك ما لم تستطع أن تقدم له العلوم شرحاً أو بياناً .

« ومهما بالغنا فى تحليل الاشياء وردها الى أصولها الاولى فلا بد أن نصل فى نهاية المطاف الى ضرورة وجود قوانين طبيعية تخضع لها ذرات هذا الكون ، ويعد ذلك فى ذاته دليلا على وجود اله قادر مدبر هو الذى قدر لكل ظاهرة من ظواهر هذا الكون أن تسير فى طريقها المرسوم (٣٣) . وقد خلق الله الالكترونات والنيوترونات وجعل لها خواصها المعينة ، فرسم لها بذلك سلوكها واقدارها » (٣٤) .

الكون اذن لا حقيقة له الا من حيث ما اثبت الله له من الوجود بتجميع عناصره على النحو

---

(٣١) موجز الفلسفة ، ترجمة الاستاذ الدكتور زكى نجيب محمود ، بعنوان « الفلسفة بنظرة علمية » مكتبة الانجلو المصرية ، ١٩٦٠ ، ص ٢٥٨ .

(٣٢) انظر موجز الفلسفة ص ٢٥٨ ، ٢٦١ – ٢٦٢ .

(٣٣) هذا هو ما تشير اليه الآية الكريمة : « وخلق كل شيء فقدره تقديرا » (سورة الفرقان آية ٢) .

(٣٤) الله يتجلى فى عصر العلم ، ص ، ٩٦ .

الذى وضحه لنا العالم الحديث ، وهي عناصر تبدأ ببروتونات لها خواص معينة وقوة جاذبه تجعلها ينضم بعضها الى البعض الاخر. ومهما بدت موجودات هذا الكون ثابته صلبة فى ادراكنا نحن، فانها فى حقيقتها ليست سوى ذرات تعود بدورها فتنحل الى اشعاعات . فليس ثمة حقيقة الا موجد الكون وما عداه من الكائنات هو أشبه شيء بوهم عارض كما يقول بعض صوفية الاسلام .

والله اذن هو العلة الممسكة بالعالم ، والحافظة عليه وجوده ولو لم يكن ذلك لتلاشى ، وهذا هو معنى قوله تعالى: « ان الله يمسك السماوات والارض أن تزولا » (سورة فاطر ، آية ٥١) .

وقد أشار بعض مفكرى الاسلام الى معنى كون الله حافظا للعالم ، أو خالقا له باستمرار ، فى شيء من التفصيل :

يقول ابن حزم الاندلسي ما نصه : « والله تعالى خالق لكل مخلوق فى كل وقت .. قال عز وجل : « ثم أنشأناه خلقا آخر » (سورة المؤمنون ، آية ١٤) ، وقال تعالى « خلقا من بعد خلق » (سورة الزمر ، آية ٦) ، فصح أن فى كل حين يحيل الله تعالى أحوال مخلوقاته ، فهو خلق جديد ، والله تعالى يخلق فى كل حين جميع العالم خلقا مستأنفا دون أن يفنيه » (٣٥) .

ويقول الكندى ان « الله هو المبدع الممسك كل ما أبدع ، فلا يخلو شيء من أمساكه وقوته الاباد والندثر » (٣٦) .

وكذلك يذهب ابن عطاء الله السكندرى الى القول بأن الله هو العلة التي تمد الموجودات بعد وجودها بالوجود، وهذا هو ما يسميه بالامداد على نحو ما يتبين من قوله فى « الحكم » : « نعمتان ما خرج موجود عنهما ، ولا بد لكل مكون منهما : نعمة الايجاد ونعمه الامداد » (٣٧) .

وهو يقول ايضا : « أمد (الله) كل موجود بوجود عطائه ، وحفظ وجوده (أى وجود الله) وجود العالم بامداد بقائه » (٣٨) .

وجدير بالذكر أن ما يذهب اليه مفكرو الاسلام الذين ذكرنا فى هذا الصدد متفق مع ما يذهب اليه بعض الفلاسفة المحدثين فى أوروبا ، من القول بالخلق المستمر (Création Continuée) مثل ديكارت (٣٩) ومالبرانش (٤٠) .

ونعود مرة أخرى الى خلق الله للأشياء فنقول :

ان الله خلق كل شيء فى هذا الكون بقدر ، أى بتقدير كمي وزماني وفق ماهية سابقة . وان شئت قلت : حدده واعطاه أوصافه وجعل له رتبة وجودية معينة ، يقول ابن حزم : « ومعنى

---

(٣٥) الفصل ، جـ ٥ ، ص ٥٥ .

(٣٦) رسائل الكندى ، تحقيق الاستاذ الدكتور محمد عبد الهادى ابو ريدة، الجزء الاول ، القاهرة ١٩٥٠ ، ص ١٦٢

(٣٧) شرح الرندى على الحكم ، جـ ١ ، ص ٩١ .

(٣٨) التنوير فى اسقاط التدبير ، القاهرة ١٣٤٥ هـ ، ص٥٢

39. Descartes : Discours de la methode, œuvres de Descartes, ed. Libraire joseph Gibert P. 47 ; Les principes de la philosophie PP. 192-193.

40. Malbranche : Entretiens métaphysiques, VII, 7 ed. Fontana 1,150.

القدر فى اللغة العربية الترتيب والحد الذى ينتهي اليه السيء . نقول : قدرت البناء تقديرا اذا رتبته وحددته » .

« قال تعالى : « وقدر فيها أقواتها (سوره فصلت ، آية ١٠) ، بمعنى رتب أقواتها وحددها. وقال تعالى : « انا كل شيء خلقناه بقدر » (سورة القمر ، آية٤٩) يريد تعالى : برتبة وحد . فمعنى قضى وقدر : حكم ورتب ، ومعنى القضاء والقدر : حكم الله تعالى فى شيء بحمده وذمه ، وبكونه وترتيبه على صفة كذا ، والى وقت كذا » (٤١)

والآيات التى تشير الى تقدير المخلوقات تقديرا كميا خاضعا للقياس او الحساب كثيرة فى القرآن ، وحسبنا ان نشير هنا الى بعضها : « وخلق كل شيء فقدره تقديرا » ، (سورة الفرقان آية ٢)

« والشمس تجرى لمستقر لها ذلك تقدير العزيز العليم . والقمر قدرناه منازل حتى عاد كالعرجون القديم » (٤٢) .

« فالق الاصباح وجعل الليل سكنا والشمس والقمر حسبانا ذلك تقدير العزيز العليم » (سورة الانعام ، آية ٩٦) .

« الم نخلقكم من ماء مهين . فجعلناه فى قرار مكين . الى قدر معلوم . فقدرناه فنعم القادرون » (سوره المرسلات ، آية ٢٠ ــ ٢٣) .

« سبح اسم ربك الاعلى . الذى خلق فسوى . والذى قدر فهدى » (سورة الاعلى ، آية ١ ــ ٣) .

« والسماء وضعها ورفع الميزان » (سورة الرحمن ، آية ٧) .

« والأرض مددناها والقينا فيها رواسي وأنبتنا فيها كل شيء موزون » (سورة الحجر ، آية ١٩) .

ومن الآيات التي تشير أيضا الى تقدير المخلوقات تقديرا زمنيا قوله تعالى :

« ان ربكم الله الذى خلق السموات والارض فى ستة أيام ثم استوى على العرش يدبر الامر » (سورة يونس ، آية ٣) .

« هو الذى جعل الشمس ضياء والقمر نورا وقدره منازل لتعلموا عدد السنين والحساب، ما خلق الله ذلك الا بالحق يفصل الآيات لقوم يعلمون » (سورة يونس ، آية ٥) .

«وان يوما عند ربك كألف سنة مما تعدون»(سورة الحج ، آية ٤٧) .

« يدبر الأمر من السماء الى الأرض ثم يعرج اليه فى يوم كان مقداره الف سنة مما تعدون» (سورة السجدة آية ٥) .

« تعرج الملائكة والروح اليه فى يوم كان مقداره خمسين الف سنة» (سورة المعارج، آية٤).

---

(٤١) الفصل ، جـ ٣ ، ص ٥٢ .

(٤٢) سورة يس ، آية ٣٨ ــ ٣٩ . والمقصود بالعرجون القديم فرع النخل اليابس ، أي ان القمر لا حياة فيه ، وهذا هو ما تاكد بعد الهبوط عليه .

ونمة ملاحظة هامة هنا ، وهى أن اختلاف التقدير فى الأيام على النحو الذى نشير اليه بعض آيات القرآن ، يفهم اذا علمنا أن الزمان هو أمر نسبي ، وهو كما نعلم يقدر بحركة الافلاك فى مجموعتنا الشمسية ، أما خارج نطاق هذه المجموعة فليس ثمة زمان بالمعنى الذى نفهمه نحن على هذه الارض .

هذا عن خلق الله للموجودات بمقدار ، أى تحديدها من ناحية الكم وفى الزمان .

اما عن ماهية كل موجود أو طبيعته الخاصة به ، فقد أشار القرآن اليها فى قوله تعالى :

« قال ربنا الذى أعطى كل شىء خلقه ثم هدى » (سورة طه آية ٥) . وفى قوله تعالى « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » (سورة التين ، آية ٤) .

ويتحدث ابن حزم عن أن الله قد جعل لكل موجود طبيعة معينة قائلا : « وكل هذه الطبائع (التي للموجودات) والعادات مخلوقة ، خلقها الله عز وجل . فرب الطبيعة على أنها لا تستحيل أبداً ولا يمكن تبدلها عند كل ذى عقل . كطبيعة الانسان بأن يكون ممكنا له التصرف فى العلوم والصناعات ان لم تعترضه آفة ، وطبيعة الحمير والبغال بأنه غير ممكن منها ذلك ، وكطبيعة البر « اى القمح » أن لا ينبت شعيرا ولا جوزا ، وهكذا كل ما فى العالم » (٤٣)

وهكذا يمكن القول بحسب الاسلام ان الله قد خلق كل مخلوق وفق ماهية سابقة له . وهذا مخالف لما يذهب اليه اصحاب الفلسفة الوجودية فى العصر الحاضر من القول بان الوجود سابق على الماهية .

وينبه القرآن الكريم بعد هذا كله الى أن الكون كله يسوده نظام محكم لا تفاوت فيه ولا نقص . يقول تعالى : « الذى خلق سبع سماوات طباقا ما نرى فى حلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور . ثم ارجع البصر كرتين ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير » (٤٤) . ويقول تعالى : « أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزينّاها ومالها من فروج » (٤٥) .

وليس أدل على انتظام أمر الكون من انه خاضع لقوانين ثابتة ، أو ـ على حد تعبير القرآن لسنن لا تتبدل .

ولا بد لنا من الوقوف عند هذه النقطة لنفصل الكلام فيها ، ليتبين للقارىء أن القرآن حين يوجه العقول الى اكتشاف سنن الكائنات انما يدعو دعوة صريحة الى العلم بالمعنى الذى نفهم منه فى عصرنا .

فالقرآن يذكر فى آيات كثيرة أن الله قد خلق المخلوقات على اختلافها بالحق ، وهذا يعني انها لم تخلق باطلا أو عبثا أو على أي نحو اتفق . يقول تعالى :

« أولم يتفكروا فى أنفسهم ما خلق الله السماوات والارض الا بالحق وأجل مسمى » (سورة الروم ، آية ٨) .

---

(٤٣) الفصل ، جـ ٥ ، ص ١٦ .

(٤٤) سورة الملك ، آية ٣ ـ ٤ . والفطور هى الشقوق ، والمقصود أنك لا ترى اختلالا .

(٤٥) سورة ق ، آية ٦ . والمقصود بقوله تعالى : « ما لها من فروج » ليس فيها عيوب أو نقائص .

« وما خلقنا السماوات والأرض وما بينهمالاعبين . ما خلقناهما الا بالحق ولكن أكثرهم لا يعلمون » (سورة الدخان ، آية ٣٨ ــ ٣٩)

« خلق السماوات والارض بالحق وصوركم فأحسن صوركم واليه المصير » (سورة التغابن، آية ٣) .

ومعنى كلمة « الحق » الواردة فى مثل هذهالآيات ، ما يوجد بمقتضى الحكمة ، كما يذكر الراغب الأصفهانى في « مفردات غريب القرآن » (٤٦) ولذلك توصف أفعال الله كلها بأنها حق ، اى انها تصدر عن الله بمقتضى علمه وحكمته .

والحكمة تقضي أن الموجودات فى الكونانما توجد وفق قوانين معينة (٤٧) ، والا لم تكن حكمة ، وهذه القوانين ليست شيئا اكثر من ربطالأسباب بمسبباتها ، والى هذا يشير ابن رشد ، فى عبارات تدلعلى علمية تفكيره، قائلا : « الحكمةليست شيئا أكثر من معرفة أسباب الشيء . واذا لم تكن للشيء أسباب ضرورية تقتضيوجوده على الصفة التي هو بها ذلك النوع موجود، فليس ههنا معرفة يختص بها الحكيم الخالق دون غيره . كما أنه لو لم تكن هنا أسباب ضرورية فى وجود الأمور المصنوعة لم تكن هنالك صناعة أصلاولا حكمة تنسب الى الصانع دون من ليس بصانع .

« وأى حكمة كانت تكون فى الانسان لوكانت جميع أفعاله واعماله يمكن أن تأتي بأى عضو اتفق ، أو بغير عضو ، حتى يكون الابصارمثلا يتأتى بالأذن كما يتأتى بالعين ، والشم بالعين كما يتأتى بالأنف ؟

« وهذا كله ابطال للحكمة ، وابطال للمعنىالذى سمى به (الله) نفسه حكيما . تعالى وتقدست أسماؤهم عن ذلك » (٤٨)

وعلى ذلك فان « بناء المسببات علىالاسباب هو الذى يدل على انها (أى الموجودات) صدرت عن علم وحكمة » (٤٩) .

وبشيء يسير من التأمل يدرك الانسان انهلا بد أن تكون هناك قوانين معينة للظواهر الكونية، هي مظهر حكمة الخالق تعالى .

فالذى ينظر الى السماء يرى النجوموالكواكب معلقة فى الفضاء دون أن تستند الى شيء ، يقول تعالى : « الله الذى رفع السماواتبغير عمد ترونها » (سورةالرعد ،آية٢،ومثلهذا التنبيهالقرآنيمنشأنه أنيدفع الانسان الى التساؤل عن علةوجود الأجرامفي السماء علىهذا النحو .

---

(٤٦) مفردات غريب القرآن ، مادة : « حق » .

(٤٧) يطلق على الموجودات في القرآن احيانا وصف الكلمات ، وهى لا تتبدل من حيث قوانينها ، يقول ابن حزم : « لا مبدل لكلماته » ، فصح انه لا تبديل لما رتبه الله مما اجرى عليه خلائقه » ، الفصل ، جـ ١ ، ص ٨٥ . وانظر سورة الانعام ، آية ١١٥ ، وسورة الكهف ، آية ٢٧ .

(٤٨) الكشف عن مناهج الأدلة ، القاهرة ١٣٢٨ هـ ، ص٤١ .

(٤٩) نفس المراجع ، ص ٨٨ .

ثم اذا بالانسان يهتدى الى قوانين الجاذبية والحركة والنسبية وما الى ذلك ، فيعرف الاسباب الحقيقة لتلك الظاهرة .

وكذلك المتأمل فى ظاهرة تعاقب الليل والنهار يتساءل عن السر فى تعاقبهما ، فيجيبه القرآن بما يفيد كروية الأرض ودورانها المستمر ، فيقول تعالى : « يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل » (سورة الزمر ، آية ٥) .

وليس هذا فهماً معاصراً لهذه الآية ، وانما هو فهم قديم توصل اليه علماء المسلمين قديما بفضل القرآن ، وفى ذلك يقول ابن حزم : « ان أحداً من أئمة المسلمين المستحقين لاسم الامامة بالعلم رضي الله عنهم لم ينكروا تكوير الارض ، ولا يحفظ لأحد منهم فى دفعه كلمة ، بل البراهين من القرآن والسنة قد جاءت بتكويرها . قال الله عز وجل : « يكور الليل على النهار ويكور النهار على الليل » . وهذا أوضح بيان فى تكوير بعضها على بعض ، مأخوذ من كور العمامة وهو ادارتها » (٥٠) .

ومن الظواهر الطبيعية التى يجمل القرآن الكريم الاشارة الى أسبابها بما لا يختلف عما هو معروف من العلم الحديث ، السحاب والمطر والبرق يقول تعالى :

« الله الذى يرسل الرياح فتثير سحابا فيبسطه فى السماء كيف يشاء ويجعله كسفاً فترى الودق يخرج من خلاله فاذا اصاب به من يشاء من عباده اذا هم يستبشرون » (٥١) .

« الم تر أن الله يزجى سحابا ثم يؤلف بينه ثم يجعله ركاما فترى الودق يخرج من خلاله وينزل من السماء من جبال فيها من برد فيصيب به من يشاء ويصرفه عمن يشاء يكاد سنا برقه يذهب بالأبصار » (سورة النور ، آية ٤٣) .

ان القرآن بمثل هاتين الآيتين يدفعنا الى علمية التفكير المتمثلة فى ربط الظواهر الطبيعية بعللها الحقيقية لا الوهمية ، فالسحاب والمطر والبرق ترتبط فى حدوثها بعوامل معينة كحرارة الشمس ومياه البحر وبخار الماء المتصاعد بفعل الحرارة والرياح واحتكاك السحب حين تتجمع .

هذه أمثلة قليلة مما يزخر به القرآن من آيات تحث عقل المفكر على اكتشاف قوانين الطبيعة التى هى مظهر نظام الكون ، كما أنها فى نفس الوقت دلالات على أن هذا الكون لم يخلق باطلا أو عبثا ، وأن له غاية .

وصدق الله تعالى اذ يقول : « وما خلقنا السماوات والارض باطلا ذلك ظن الذين كفروا فويل للذين كفروا من النار» (سورة ص ، آية ٢٧) .

وانظر الى العلم بالكون وقوانينه حينما ينتهى الى الايمان بالله فى صورة رائعة يقدمها لنا سيسل هامان اذ يقول .

« فاذا رفعنا أعيننا نحو السماء فلا بد أن يستولى علينا العجب أكثر ، من كثرة ما نشاهده فيها من النجوم والكواكب السابحة فيها ، والتى نتبع نظاما دقيقا لا تحيد عنه قيد أنملة ، مهما

---

(٥٠) الفصل ، ج ٢ ، ص ٩٧ .

(٥١) سورة الروم ، آية ٤٨ والودق هو المطر .

مرت بها الليالى، وتعاقبت عليها الفصول والأعوام والقرون . انها تدور فى أفلاكها بنظام يمكننا من التنبؤ بما يحدث من الكسوف والخسوف قبل وقوعه بقرون عديدة .

« فهلا يظن أحد بعد ذلك أن هذه الكواكب والنجوم قد لا تكون أكثر من تجمعات عشوائية من المادة تتخبط على غير هدى فى الفضاء ؟ واذا لم يكن لها نظام ثابت ، ولم تكن تتبع قوانين معينة، فهل كان من الممكن أن يثق الانسان بها ، ويهتدى بهديها فى خضم البحار السبعة ، وفى الطرق الجوية التى تتبعها الطائرات (٥٢) .

« الحق أنة من قطرة الماء التى رأيناها تحت المجهر الى تلك النجوم التى شاهدناها خلال المنظار المكبر ، لا يسع الانسان الا ان يمجد ذلك النظام الرائع وتلك الدقة البالغة والقوانين التى تعبر عن تماثل السلوك وتجانسه .

« ولولا ثقة الانسان فى أن هنالك قوانين يمكن كشفها وتحديدها لما أضاع الناس أعمارهم بحثا عنها فبدون هذا الاعتقاد وتلك الثقة فى نظام الكون يصير البحث عبثا ليس وراءه طائل .

« ولو أنه كلما اجريت تجربة أعطت نتيجة مخالفة لسابقتها بسبب توقفها على المصادفة أو عدم وجود قوانين مسيطرة فأى تقدم كان من الممكن أن يحققه الانسان ؟ .

« لا بد ان يكون وراء كل ذلك النظام خالق أعلى . فليس مما يقبله العقل أن يكون هناك نظام او قوانين دون أن يكون وراءها عقل أعلى ومنظم مبدع .

« وكلما وصل الانسان الى قانون جديد فان هذا القانون ينادى قائلا : ان الله هو خالقى وليس الانسان الا مكتشفا ! » (٥٣) .

خلاصة القول فيما سبق ان معالم صورة الكون فى الاسلام تتحدد على النحو التالى : ــ

الكون كله حادث مخلوق ، وكل ما فيه من الكائنات له بداية ونهاية ، والله تعالى هو الذى خلقه بما فيه من عوالم متعددة ومخلوقات نعلم بعضها ولا نعلم عن البعض الآخر شيئا ، وان الكون لعظم اتساعه غير محصور فى مداركنا ، ولذلك لا يمكن القطع بأنه يتناهى او لا يتناهى . وكذلك فان الله لم يخلق عوالم الكون دفعة واحدة وانما خلقها على سبيل التدريج او التطور ، وأن الموجودات جميعا فى الكون من أصل واحد . والله هو الممسك للكون أو الحافظ عليه وجوده، ولولا ذلك لتلاشى، وأن خلقه للموجودات مستمر . وحين خلق الله مخوقاته فانه خلقها بقدر ، أى بتقدير كمي وزمانى وفق ماهيات سابقة . والكون كله يسوده نظام دقيق محكم اذ أن جميع الموجودات فيه خاضعة لقوانين مطردة ثابتة لا تتبدل ، وهذا هو معنى ايجادها بالحق ، أى بمقتضى حكمه معينة .

واذ قد تبينت صورة الكون على هذا النحو ننتقل الى البحث عن الانسان من حيث علاقته بالكون : كيف وجد فيه ، وما هى طبيعته المميزة له ، وما هى رسالته فى هذه الحياة التى يحياها

---

(٥٢) هذا هو معنى قوله تعالى : « وعلامات وبالنجم هم يهتدون » ، سورة النحل ، آية ١٦ .

(٥٣) الله يتجلى فى عصر العلم ، ص ١٤٤ .

على الارض ، وما معنى تسخير الكون له ، أوملاءمته لوجوده ، وهل لحياته غاية أبعد من تلك التى تتحقق على الارض ؟ كل أولئك تساؤلات نحاول أن نجيب عليها فيما يلى :

الانسان بحسب ما ورد في القرآن الكريم هو محور هذا الكون،وعلى قمة مخلوقاته وموضع التكريم والعناية الالهية فيه ، خلقه الله فى أحسن تقويم وجعله فى أكمل صورة . يقول تعالى : « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » سورة التين ، آية ٤ ، ويقول تعالى : «وصوركم فأحسن صوركم » (سورة غافر ، آية ٦٤) .

أما كيف تم خلق الانسان ، فهذا مما لانستطيع الوقوف على حقيقته ، صحيح أن فى القرآن الكريم ما يشير الى قصة خلق آدم ،وكيف علمه الله الاسماء كلها ، وأمر الملائكة بالسجود له فسجدوا الا ابليس ، وكيف أخطا هو وزوجه فأمرهما الله بالهبوط الى الارض ،(سورة البقرة آية ٣٠ وما بعدها ، ولكن هذه كلها اشارات الى أمور غيبية لا نعرف كنهها ، وهى أيضا مما يحتمل تأويلات شتى .

وقد أصاب ابن حزم حيث يقول : « فلسنا نعلم ولا أحد من الناس كيفية ذلك (أى بدء الخلق) ، وهذا نص قوله تعالى : « ما أشهدتهم خلق السماوات والارض ولا خلق انفسهم » (سورة الكهف آية ٥١) . اما ما كان بعد ابتداء الخلق فمعروف الكيفيات ، قال تعالى : « وتمت كلمة ربك صدقا وعدلا لا مبدل لكلماته » (سورة الانعام آية ١١٥) ، فصح انه لا تبديل لما رتبه الله مما اجرى عليه خلائقه » (٥٤) .

ولا يعيب الانسان المفكر ابداً ان يقر بعجز عقله الآن عن ادراك حقيقة ما ، فما أكثر ما لا نعرفه بيقين ، وانما الذى يعيبه حقا هو أن يسارع فينكرها لمجرد الانكار ، أو يخوض فى الكلام عنها متأولا بما لا يعرف .

واذا كان العلماء يحددون الآن بدء ظهور الانسان على هذه الارض بما يقرب من مليون سنة ، استناداً الى أقدم الحفريات ، فهذا يدل على ان الانسان قد جاء خاتمة لسلسلة من المخلوقات أدنى منه سبقته على هذه الارض ، بل ان الانسان نفسه تطور على هذه الارض ماراً بمراحل متتالية حتى بلغ الى ما بلغ اليه من كمال،يقول تعالى :

« هل أتى على الانسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا » (سورة الانسان ،آية ١) .

« ما لكم لا ترجون لله وقارا . وقد خلقكم اطوارا . الم تروا كيف خلق الله سبع سماوات طباقا . وجعل القمر فيهن نورا وجعل الشمس سراجا . والله أنبتكم من الأرض نباتا . ثم يعيدكم فيها ويخرجكم اخراجا»(سورة نوح آية ١٢ـ١٨).

ولكن التطور الذى تشير اليه مثل هذه الآيات فى القرآن اشارات مجملة انما يتعلق بالانسان من حيث هو كائن مادى ، لا من حيث هو كائن روحى،فالانسان بالاعتبار الاول نشأ على هذه الارض وتطور،أما بالاعتبار الثاني فقد كان له وجود روحى سابق فى عالم اخر ـ وهو ما تشير اليه قصة خلق آدم فى القرآن ـ وان كنا لا ندرى كيفيات هذا الوجود .

---

(٥٤) الفصل ، جـ ١ ، ص ٨٥ .

يقول تعالى : « ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم الا قليلا » (سورة الاسراء ، آية ٨٥) .

أما القول بأن الانسان مادة فقط ، فهو قول ينقضه ما يعرفه الانسان بفطرته فهو كائن بعي ذاته ، والماده لا تعى ذاتها .

واكثر من ذلك هو الكائن الوحيد من بين سائر الكائنات الأخرى الحية القادر على استخلاص اسد انواع المعرفة تجريداً بعمليات ذهنية فى غاية من التعقيد ، ولا حدود لانطلاقاته فى هذا السبيل .

والانسان حين يعمد الى تأمل ذاته ، أو مايسميه علماء النفس بالاستبطان (Introspection) لا يدرك مادة ، وانما يدرك فكرا .

وبتعبير أكثر دقة يدرك حالات متتابعة من التفكير ، هى ما يطلق على مجموعه الذات المفكرة ، أو بتعبير علماء النفس الأنا (Ego) ، على اعتبار ان وحدة الظواهر النفسية تستلزم أصلا إن تصدر عنه .

ان استمرار حياة الانسان الوجدانية فى تيار واحد لا انقسام فيه ولا انفصام ، او بعبارات اخرى شعوره من أول عمره الى آخره بحركة فكره المتصلة فى الزمان ، يتبت له ان ذاته المفكرة متميزة عن البدن تماما ، وان كانت هى علة تدبيره وحركته .

ولما كان الانسان يدرك هذا كله من نفسه مباشرة ، فاءنه غير محتاج فى اثبات صدقه الى دليل من خارج ، فالحدس دائما أقوى من البرهان .

والانسان يدرك من نفسه ايضا بطريق مباشر انه حين يسلك فانما يسلك بمقتضى حوافز معينة وليس عشوائيا . ولا نستطيع ان نصف كل هذه الدوافع بانها مادية . ولهذا فان مظاهر سلوك الانسان من أشد الامور تعقيدا اذ لا يمكن تفسيرها آليا . ولم ينجح علماء النفس بعد فى اخضاع جميع الظواهر النفسية فى الانسان الى القياس الكمى . وعلى سبيل المثال فان مجال العواطف الانسانية لا يزال الى الآن من اغمض المجالات فى علم النفس .

كل هذا يدلنا على الفارق بين الانسان وبين غيره من الكائنات الحية وغير الحية . وهو الفارق الذى يكمن فى أن الانسان حين يصدر فى سلوكه فانما يصدر عن ارادة واعية وفكر استدلالى ، والفكر غير خاضع لقوانين المادة ، وهى لا تفسر لنا شيئا من تصوراته المجردة وعملياته المعقدة .

ونحن اذا قلنا ان الانسان كائن ذو طبيعتين ، احداهما تتعلق بعالم المكان والزمان ، والأخرى تتعلق بعالم آخر غير مادى ، فان قولنا هذا ليس يعبر عن فكرة ميتافيزيقية بعيدة عن واقع الانسان كما يحسه هو نفسه مباشرة . فالانسان هو الكائن الوحيد الذى ينزع بشعوره وبعقله نزوعا غريبا الى ما وراء المحسوس ، وهو نزوع يكاد ان يكون فطريا فيه وملازما لطبيعته ، فكيف يمكن اغفال دلالات ذلك ؟

ونعود الان الى ما كنا بصدده ، فنقول : ان الانسان نشأ وتطور على هذه الارض ، ولكن بعد وجود سابق لا ندرى كنهه فى عالم آخر غير هذا العالم المحسوس .

ومن الآيات القرآنية التى لها دلالة على ما ذكرنا قول الله تعالى :

« واذ اخذ ربك من بنى آدم من ظهورهم ذريتهم وأشهدهم على أنفسهم الست بربكم قالوا بلى شهدنا أن تقولوا يوم القيامة انا كنا عن هذاغافلين » (سورة الاعراف ، آية ١٧٢) .

ويذكر فخر الدين الرازى عند تفسيره لهذه الآية أن صوفية الاسلام يأخذون فى تفسيرها برأى مؤداه أن الارواح البشرية موجودة قبل الابدان ، وان الاقرار بوجود الاله من لوازم ذواتها وحقائقها (٥٥) .

والواقع أن صوفية الاسلام لم يكونوا هم وحدهم الذين فهموا تلك الآية الكريمة على هذا النحو ، ولكن يشاركهم فى هذا الفهم ابن حزم على الرغم من انه من ائمة الظاهرية ، فهو يقول :

« ان الله تعالى قد نص كما ذكرنا انه اخذ من بنى آدم من ظهورهم ذرياتهم ، وهذا نص جلى على أنه عز وجل خلق أنفسنا كلها من عهد آدم عليه السلام ، لأن الاجساد حينئذ بلا شك كانت تراباً وماء . وايضا فان المكلف المخاطب انما هو النفس لا الجسد . فصح يقينا أن نفوس كل من يكون من بنى آدم الى يوم القيامة كانت موجودة مخلوقة حين خلق آدم بلا شك . ولم يقل الله عز وجل انه أفنانا بعد ذلك . ونص تعالى على انه خلق الارض والماء حينئذ بقوله تعالى : « وجعلنا من الماء كل شيء حي » (سورة الانبياء آية ٣٠) ، وقوله تعالى : « خلق السماوات والارض في ستة ايام ثم استوى على العرش » (سورة الاعراف ، آية ٥٤) . واخبر عز وجل انه خلقنا من طين ، والطين هو التراب والماء ، وانما خلق تعالى من ذلك أجسامنا ، فصح ان عنصر أجسامنا مخلوق منذ أول خلقه تعالى السماوات ، وأن أرواحنا ، وهى انفسنا ، مخلوقة منذ أخذ الله تعالى عليها العهد » (٥٦) .

وفى رأينا انه لا يزال وراء النصوص الدينية المتعلقة بخلق الانسان من الأسرار ما لا نعلم .

كما أن علم الانسان بنفسه وبامكاناته الهائلة لا يزال محدودا الى الآن ، وربما استطاع الانسان ان يعرف عن الكون المادى اكثر مما استطاع ان يعرفه عن أسرار نفسه .

مهما يكن من شيء ، فان الله تعالى خلق الانسان ، وشاء ان تكون هذه الارض مستقرا له الى وقت معلوم ، وفى ذلك يقول تعالى : « ولكم فى الارض مستقر ومتاع الى حين » (سورة البقرة ، آية ٣٦) .

والانسان فى هذه الدنيا صاحب رسالة فقد استخلفه الله على الأرض ليعمرها ويستخرج خيراتها لا ليزهد فيها وينصرف عنها ، وهذا هو معنى الاستخلاف فى قوله تعالى : « انى جاعل فى الارض خليفة » (سورة الانعام ، آية ١٦٥) .

على أن هذا الاستخلاف لا يخلو من الامتحان ، فقد أراد الله لهذا الانسان أن تعانى نفسه من الصراع بين نوازع الخير والشر فيما هو مستخلف فيه ، وهو صراع تكتمل من خلاله

---

(٥٥) مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير ، القاهرة ١٣٢٤ هـ ، جـ ٥ ، ص ٣١٢ وما بعدها .

(٥٦) الفصل ، جـ ٢ ، ص ١٣١ ـ ١٣٢ .

شخصيتـــه ، وترتقى مـــن الناحيتين الروحيـــة والمادية، فيتهيأ بهذا لحياة أخرى غير هذه الحياة، والقانون الذى يحكم هذا كله هو : الجزاء علـى قدر العمل ، يقول تعالى :

« وهو الذى جعلكم خلائف الأرض ورفع بعضكم فوق بعض درجات ليبلوكم فيما آتاكم ». (سورة الانعام ، آية ١٦٥) .

« هو الذى جعلكم خلائف في الأرض فمن كفر فعليه كفره ولا يزيد الكافرين كفرهم عند ربهم الا مقتا ولا يزيد الكافرين كفرهم الا خسارا » (سورة فاطر ، آية ٣٩) .

« انا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا » (سورة الكهف ، آية ٧) .

« ولا تجزون الا ما كنتم تعملون » (سورة يس ، آية ٥٤) .

« يومئذ يصدر الناس أشتانا ليروا أعمالهم . فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » (سورة الزلزلة ، آية ٦ ـ ٨) .

وكان من مظاهر رحمة الله ان جعل فى الانسان عقلا ليستطيع به ادراك اسرار الكون ومعرفة خالقه ، وترتيب أمور معاشه في هذه الدنيا على أفضل وجه . وهذا العقل هو الأمانة التى يذكر القرآن ان الانسان قد حملها (انظر : سورة الاحزاب (آية ٧٢). وبواسطة العقل أيضا يستطيع الانسان أن يميز بين الخير والشر ، والتقوى والفجور ، كما يفهم من قوله تعالى : « ونفس وما سواها . فألهمها فجورها وتقواها » (سورة الشمس آية ٧ ـ ٨) .

ومن مظاهر رحمة الله بالانسان أيضا ارسال الرسل بالبينات ، لعلمه تعالى بأن شهوات الانسان وأهواءه قد تنحرف بعقله الى مسالك الشر . وكان أن تتابعت الرسالات مســـايرة المجتمعات الانسانية فى تطورها الصاعد آخذة بيد البشرية الى أسباب ارتقائهـــا الروحى والمادى حتى كانت الرسالة المحمدية فختمت بها الرسالات ، وتحققت بها الرحمة كاملة ، يقول تعالى : « وما ارسلناك الا رحمة للعالمين» (سورة الانبياء، آية ١٠٧) .

جاء الاسلام لنـــوع الانسان بالتوحيد الخالص الذى لا تشوبه شائبة ، وتم بلاغ السماء للناس جميعا ، وتأكدت أهمية الانسان على هذه الارض وكرامته وعزته ، وتحددت صلته بربه ، وبأشباهـــه مـــن الناس ، على اسس واضحة ، وتركت للناس مصالحهم المرسلة يعالجونها كلما جدت وقائع جديدة فى حياتهم وانتهت مرحلة الاعتماد على الخوارق فى اثبات الرسالات بوصول البشرية الى مرحلة الاعتماد على العقل فى معرفة الكون وخالقه .

لهذا كان العقل دعامة أساسية من دعامات الاسلام ، واستخدام العلم من أقوى الوسائل الى تحقيق رسالة الانسان على هذه الارض ، وهي أن يعمرها ويستغل خيراتها الى أبعد الحدود .

ونظرة الى تاريخ حضارة الانسان منذ وجد على هذه الارض الى الآن كفيلة ببيان الحكمة الالهية من وجود الانسان ، فالتطور الهائل فى امكانياته يدلنا على ان الله قد أوجد فيه من الاستعدادات ما لم يوجد فى مخلوق آخر ، ولازال مستقبل الانسان يحمل من الامكانيات فى تسخير الطبيعة ما لا نعلم وما قد لا نتصور ، ومن ذا الذى كان فيما مضى يتصور وصول الانسان الى القمـــر ؟!

ان الانسان فى الحقيقة هو قمة الموجودات فى هذا العالم ،وهو بمثابة مرآة يتجلى فيها الكون كله ، وهو الكائن الوحيد على هذه الارض القادر على تعقل ما حوله واعطائه معنى وهدفاً ، وما أعمق المعنى فى قوله تعالى : « وفى انفسكم أفلا تبصرون » ، سورة الذاريات ، آية ٢١) .

فليس غريباً أن يكرم الله الانسان لما فيه من هذه المعاني كلها ، وصدق الله اذ يقول : « ولقد كرمنا بني آدم » (سورة الاسراء ، آيـة ٧٠) .

وليس غريباً كذلك أن يكون الانسان موضع العناية الالهية ليتمكن من استمرار الوجود على هذه الارض وليحقق رسالته .

والحقيقة أن مـن أقوى الدلائل على أن الانسان محور هذا الكون هو تلك الملاءمة التي يدركها بيسير تأمل بينه وبين العالم الذى يعيش فيـه :

فالغلاف الجوى المحيط بالارض يحميها من الشهب والنيازك ، والهواء المحيط بالانسان ملائم لنفسه ووظائف حياتـه ، ولا كذلك الطبقات العليا من الجو (٥٧) . ووجود الجبال يحفظ توازن الأرض ، وتعاقب الليل والنهار فيه ملاءمة لنوم الانسان ويقظته ، ونزول المطر من السماء هو بمقدار ما ينبت به النبات وينتفع به الانسان والحيوان ، وعدم اختلاط ميـاه البحار بمياه الانهار العذبة هو من اجل بقاء النبات والحيوان والانسان،ووجود الاشجار فيه من الفوائد للانسان مالا يحصى ، وكذلك المعادن فى باطن الارض .وهكذا فان كل مانشاهده من هذا العالم المرئي انما يوحي الينا بأنه ملائم لحياة الانسان من كل الوجوه ، يقول تعالى :

« أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها . رفع سمكها فسواها . وأغطش ليلها وأخرج ضحاها . والارض بعد ذلك دحاها . أخرج منها ماءها ومرعاها . والجبال أرساها . متاعا لكم ولانعامكم » (سورة النازعات ، آية ٢٧ ـ ٣٣) .

« أفلم ينظروا الى السماء فوقهم كيف بنيناها وزيناها ومالها من فروج . والأرض مددناها وألقينا فيها رواسى وأنبتنا فيها من كل زوج بهيج . تبصرة وذكرى لكل عبد منيب . ونزلنا من السماء ماء مباركا فأنبتنا به جنات وحب الحصيد . والنخل باسقات لها طلع نضيد . رزقا للعباد واحيينا به بلدة ميتا كذلك الخروج » (سورة ق ، آية ٦ ـ ١١)

« ألم نجعل الأرض مهادا . والجبال اوتادا . وخلقناكم أزواجا . وجعلنا نومكم سباتا . وجعلنا الليل لباسا . وجعلنا النهار معاشا . وبنينا فوقكم سبعا شدادا . وجعلنا سراجا وهاجا . وأنزلنا من المعصرات ماء ثجاجا لنخرج به حبا ونباتا . وجنات الفافا» (سورة النبأ آية ٧ـ١٦) .

« وهو الذى مد الأرض وجعل فيها رواسي وأنهارا ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين يغشى الليل النهار ان فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون . وفي الأرض قطع متجاورات وجنـات من أعناب وزرع ونخيل صنوان وغير صنوان يسقى بماء واحد ونفضل بعضها على بعض فى الأكل ان فى ذلك لآيات لقوم يعقلون » (سورة الرعد آيـة ٣ ـ ٤) .

---

(٥٧) اشار القرآن الى عدم ملاءمة الطبقات العليا لتنفس الانسان فى قوله تعالى :

« ومن يرد ان يضله يجعل صدره ضيقا حرجا كانما يصعد فى السماء » (سورة الانعام آية ١٢٥) ، وهو أمر لم يكتشفه العلم الا حديثا .

« وهو الذى مرج البحرين هذا عذب فرات وهـذا ملح أجاج وجعل بينهما برزخا وحجرا محجورا » سورة الفرقان ، آية ٥٣) .

« وأنزلنا من السماء ماء بقدر فأسكناه فى الأرض وانا على ذهاب به لقادرون فأنشأنا لكم به جنات من نخيل وأعناب لكم فيها فواكه كثيرة ومنها تأكلون» (سورة المؤمنون، آية ١٨ ــ ١٩)

« أفرأيتم الماء الذى تشربون . أأنتم أنزلتموه من المزن أم نحن المنزلون . ولو نشاء جعلنـاه أجاجا فلولا تشكرون. أفرأيتم النار التي تورون. أأنتم انشأتم شجرتها أم نحن المنشئون . نحن جعلناها تذكرة ومتاعا للمقوين . فسبح باسم ربك العظيم » سورة الواقعة ، آية ٦٨ ــ ٧٤ .

ان هذه الموافقة بين العالم والانسان ، والتى تشير اليها هذه الآيات القرآنية ، وكثير غيرها فى القرآن الكريم ، تظهرنا أيضا على أن العالم لم ينشأ اتفاقا كما يقول الماديون . وقد عبر ابن رشد عن هذا المعنى الأخير قائلا :

«كما أن الانسان اذا نظر الى شيء محسوس فرآه قد وضع بشكل ما ، وقدر ما ، ووضع ما ، موافق فى جميع ذلك للمنفعة الموجودة فى ذلك الشيء المحسوس ، والغاية المطلوبة منه ، حتى يعترف أنه لو وجد بغير ذلك الشكل ، او بغير ذلك الوضع ، أو بغير ذلك القدر ، لم توجد فيه تلك المنفعة ، وأنه ليس يمكن أن تكون موافقة اجتماع تلك الاشياء لوجود تلك المنفعة بالاتفاق كذلك الأمر في العالم كله ، فانه اذا نظر الانسان الى ما فيه من الشمس والقمر وسائر الكواكب التي هي سـبب الازمنة الأربعة وسبب الليل والنهار ، وسبب الامطار والمياه والرياح ، وسبب عمارة اجزاء الارض ، ووجود الناس وسـائر الكائنات من الحيوانات والنبات ، وكون الارض موافقة لسكنى الناس فيها ، وسائر الحيوانات البرية ، وكذلك الماء موافقا للحيوانات المائية ، والهواء للحيوانات الطائرة ، وانه لو اختل شيء من هذه الخلقة والبنية لاختـل وجود المخلوقات التي ههنا ، علم على القطع انه ليس يمكن أن تكون هـذه الموافقة التي فى جميع اجزاء العالم للانسان والحيوان والنبات بالاتفاق ، بل ذلك عن قاصد قصده ، ومريد أراده ، وهو اللـه عز وجل ، وعلم على القطع أن العالم مصنوع » (٥٨).

ان نظرة ابن رشد الى ما فى الكون من نظام يدل على الغائية على هذا النحو يدلك على علمية تفكره . ولو عاش ابن رشد فى عصرنا لعلم من أسرار الموجودات في الكون ، ومن موافقتها لوجود الانسان ما لم يكن ليخطر له على بال ، ولتقوى دليله فى العناية بأكثر مما هو عليه .

ومن الطريف أن يعبر أحد العلماء المعاصرين ، هو ديل سوارتزن دروبر ، عن نفس دليل ابن رشد الذى مر بك ، ولكن بلغة عصرنا ، فيقول :

« كيف نفسر ذلك النظام والابداع الذى يسود هذا الكون ؟ هناك حلان : فأما أن يكون هذا النظام قد حدث بمحض المصادفة ، وهو ما لا يتفق مع المنطق أو الخبرة ، وما لا يتفق فى نفس الوقـت مع قوانـين الديناميكا الحراريـة التي يأخذ بها الحديثون من رجال العلوم .

« وأما أن يكون هذا النظام قد وضع بعد تفكير وتدبير ، وهو الرأى الذى يقبله العقل والمنطق .

---

(٥٨) الكشف عن مناهج الادلة ، ص ٨١ ــ ٨٢ .

« وهكذا نرى العلاقة بين النبات والتربةتشير الى حكمة الخالق وتدل على بديع تدبيره .

« وانا واثق أن الأخذ بهذا الرأى سوف يثير انتقاد المعارضين لهذا الاتجاه ممن لا يؤمنون بوجود الحكمة أو الغرض وراء ظواهر الطبيعةوقوانينها. ومعظم هؤلاء ممن يأخذون بالتفسيرات الميكانيكية ، ويظنون أن النظريات التى يصلونإليها فى تفسير ظواهر الكون تمثل الحقيقة بعينها.

«ولكن هنالك من المسوغات ما يدعونا الىالاعتقاد أن ما وصلنا اليهمنالتفسيراتوالنظريات العلمية ليس الاتفسيرات مؤقتة،وليست لها صفةالاطلاق أو الثبات .

« فاذا سلمنا بهذا الرأى تضاءل خطر المعارض فى غرضية الكون أو وجود غاية منه . فمما لا شك فيه ان هنالك حكمة وتصميما وراءكل شيء ، سواء فى السماء التي فوقنا أو الارض التي من تحتنا .

« أن انكار وجود المصمم والمبدع الاعظميشبه فى تجافيه مع العقل والمنطق ما يحدث عندما يبصر الانسان حقلا رائعا يموج بنباتاتالقمح الصفراء الجميلة ، ثم ينكر فى نفس الوقت وجود الفلاح الذى زرعه والذى يسكن فى البيتالذى يقوم بجوار الحقل !! » (٥٩)

وهكذا تبدو الغائية فى الكون وفى الانسان فىأجلى مظاهرها أمام العقل العلمي المنصف الذى عرف حدوده وتخلى عن غروره بامكانياته .

وما أجل عبارة أينشتين : « ان الشخصالذى يعتبر حياته وحياة غيره من المخلوقات عديمة المعنى ليس تعيسا فحسب ، ولكنه غيرمؤهل للحياة » (٦٠) .

واذا كانت حياة الأنسان على الأرض قصيرةللغاية الا انها عظيمة الانجازات . فهل ينتهي كل هذا فجأة ويضيع كفاح الانسان كله على هذهالارض ؟ وهل يستوى من بذل جهوده لخدمة الانسانية وتعمير الأرض مع من افسد فيها ؟ وهليستوى العالم والجاهل والمحسن والمسيء ؟

لو كان الأمر كذلك، اذن تكون حياة الانسانعلى الأرض عبثا لا معنى له ، وضياعا لا حد له !

لقد علم الله حين خلق الانسان انه قديحتجب بشهواته وأهوائه عن رؤية الحقيقة فيقع فى وهم كوهم الدهرية حين قالوا : « ما هي الاحياتنا الدنيا نموت ونحيا وما يهلكنا الا الدهر » (سورة الجاثية ، آية ٢٤) .

ومن هنا بين الله تعالى للانسان أن ثمةوراء حياته هذه حياة أخرى سيحاسب فيها على أعماله ، أن خيراً فخير وان شراً فشر ، لايستوىفيها العالم والجاهل ، ولا المؤمن والفاسق ، ولا الطيب والخبيث .

« قل هل يستوى الذين يعلمون والذين لايعلمون » (سورة الزمر ، آية ٩) .

« أفمن كان مؤمنا كمن كان فاسقا لايستوون » (سورة السجدة ، آية ١٨)

« قل لا يستوى الخبيث والطيب ولواعجبك كثرة الخبيث» (سورة المائدة،آية ١٠٠).

---

(٥٩) الله يتجلى فى عصر العلم ، ص ١٥٤ .

(٦٠) الله يتجلى فى عصر العلم ص ١٥٤ .

وهذا هو العدل الذى يطمئن اليــه قلب الانسان ويجعل لحياته معنى .

ان الايمان بحياة أخرى يدفع الانسان ايضا الى العمل الصالح النافع لأن هذا هو الطـريق المؤكد الى السعادة .

لقد كتب عالم النفس وليم جيمس مقالا عنوانه (٦١) : « هل للحياة قيمة » قــال فيه ان الحياة تستحق أن نحياها اذا اعتقدنا بأن هذا العالــم ليس الا جــزءا مــن الوجــود ، وأنه يوجد الى جوار عالمنا المحسوس قوى روحية خالدة ، ونوجد هذه القوى فى عالم غير مرئي .

ان اعتقادنا فى هذا العالم غير المنظور هو مصدر اعتقادنا بأن عالمنا المنظور خير للانسان . ومعنى الخيرية ملاءمة عالمنا لحياة خلقية ودينية ناجحة . ان الاعتقاد فى العالم غير المنظور يعطينا مجالاً جديداً وقوى جديدة نستعين بها حين نفقد معركة هذه الحياة ونصاب بالعجز أو اليأس . اننا حينئذ نشعر بالأمل والسعادة حينما نرتمي فى أحضان ذلك العالم الفسيح .

لقد عبر وليم جيمس عن واقع الانسان حين جعل سعادته مرتبطة بايمانه بوجود عالم غيبي ، وهي سعادة لا يمكن أن يعرفها حق المعرفة الا من عانى تجربه دينية حقيقية لا شكلية . ولا كذلك الانسان الملحد فهو لا سبيل له الى تصور سعادة كهذه ، لانه اذا تفكر فى مصيره يجد نفسه عاجزاً بأزاء الموت الذى يضع نهاية أخيرة لوجوده، والذى لا مفر له منه فى نفس الوقت . وهــذا يدفعه الى أنواع من التحديات العنيفة التي يحاول أن يؤكد بها ذاته . ومن بين صور هذه التحديات السعي الى هدم ما تعارف عليه المجتمع من قيم انسانية ، واقبال لا حد له على ملذات الحياة دون مبالاة بالغير، وبطرق مشروعة وغير مشروعة . وهذا يفسر لنا لماذا يقترن الالحاد بالانانية المفرطة والحقد والحسد والضغينــة وما الى ذلك مــن شرور أخلاقية . وهذا أمر طبيعي فما الذى يمكن أن يخشاه الملحد اذا كان يعتقد انه لا قيم تلزمه ، ولا بعث ولا حساب ، ولا ثواب ولا عقاب ؟

ومن أطرف ما نجده فى الفكر الاسلامي رداً على الملحــدين المنكرين للبعث ما يورده الامــام الغزالي (٦٢) مــن محاورة بين الامام علي رضي الله عنه وأحد الملحدين ، قائلا :

« قال علي كرم الله وجهه لبعض الملحدين : ان كان ما قلته (من أنه لا بعث ولا حساب) حقا ، فقد تخلصت وتخلصنا .

« وان كان ما قلناه (مــن وجــود البعث والحساب) حقاً فقد تخلصنا وهلكت »

ويعقب الامام الغزالي على هذا قائلا : وما قال (الامام علي) هذا عن شك منه فى الآخرة ، ولكنه كلم الملحد على قدر عقله ! »

ويعبر الامام الغزالي عن هذه الفكرة ذاتها قائلا : « ليس فى العقلاء الا من صدق باليــوم الآخر وأثبت ثوابا وعقابا .. فان صدق اولئك العقلاء فى أمر الآخرة ، وكذب هو ، فانه يبقى فى عــذاب أبــدى . وان كذبوا هم وصدق هو فلن يفوته الا بعض شهواته الدنيا الفانية » (٦٣)

---

(٦١) محمود زيدان : وليم جيمس ، دار المعارف بالقاهرة ، ص ١٥٦ .

(٦٢) انظر احياء علوم الدين ، جـ ٣ ، ص ٣٢٦ وما بعدها .

(٦٣) هذه الفكرة هى عين تلك التى عبر عنها بعد الغزالى بقرون الفيلسوف الفرنسى باسكال وتعرف عنده بفكــرة الرهان ، وذلك فى كتابه « الخواطر » .

ومن ثم فان ما هو أكثر ضمانا بالنسبة للانسان ان يعتقد بالبعث اذا نظر الى مصيره نظرة عقلية واعية .

ولذلك يبين القرآن لنا أن حياة الانسان مع انكار البعث تكون عبثا لا معنى له ، ولا بد من وجود حياة اخرى وراء هذه الحياة أكمل وابقى يلقى فيها الانسان الجزاء على ما قدم من أعمال ، فحياتنا هذه الدنيوية ليست غاية فى ذاتها ، وانما هي وسيلة لغاية أبعد . يقول تعالى :

« أفحسبتم انا خلقناكم عبثا وانكم الينا لا ترجعون » (سورة المؤمنون ، آية ١١٥) .

« أيحسب الانسان أن يترك سدى » (سورة القيامة ، آية ٣٦) .

يا قوم انما هذه الحياة الدنيا متاع وان الآخرة هي دار القرار » (سورة غافر ، آية ٣٩) .

« وما هذه الحياة الدنيا الا لهو ولعب وان الدار الآخرة لهي الحيوان لو كانوا يعلمون » (سورة العنكبوت ، آية ٦٤) .

ان الانسان اذا لم ير لحياته معنى أو غاية وقع حتما فى التشاؤم الشديد ، وتحلل من كل القيم ، وتخلى عن انسانيته أو المعنى الذى كرمه الله من أجله ، وأصبح لا يعقل شيئا مما حوله ، ولا يبدو له أى أمر من أمور حياته معقولا . (٦٤)

لقد نظرت بعض الفلسفات المعاصرة كوجودية سارتر الى الانسان على أنه كائن حائر ، وانه وجود يحمل العدم فى صميمه . بل ان وجود الانسان عند سارتر مرادف للقلق الى الحد الذى يجعله يقول : « نحن قلق » (٦٥) (Nous sommes angoisse)

والانسان كما يقول سارتر محكوم عليه فى كل لحظة ان يخترع الانسان ، فما الانسان الا ما يصنع نفسه ، وما يريد لنفسه ، وما يتصور نفسه بعد الوجود . انه هو وحده خالق قيمه ومعاييره ، يقول سارتر « ويترتب على ذلك ان حريتي هي الاساس الوحيد للقيم ، وليس ثمة شيء مطلقا يمكنه أن يلزمني باصطناع هذه القيمة أو تلك » (٦٦)

أن الحرية عند سارتر ليست سوى ارادتنا واهوائنا (٦٧) ، وحياتنا لا شيء غير العبث والضياع والانسان عاطفة لا فائدة منها . (٦٨)

وعلى هذا النحو تتصور بعض الفلسفات المعاصرة حقيقة الانسان فتسلبه كل معنى يمكن أن يكرم من أجله .

---

(٦٤) هذا ما شير اليه مثلا مسرحيات الكاتب المسرحي المعاصر الذى حاز شهرة كبيرة فى اوروبا صمويل بيكيت (١٩٠٦ –) وهو يركز فى مسرحياته على أن حياة الانسان لا معنى لها ولا تبدو معقولة . ومن هنا عرف مسرحه بالمسرح اللامعقول . وهذا النوع من الكتابات يعكس لنا الى اى حد تعانى الحضارة الاوروبية من ازمة قيم شديدة قد تعجل بانهيارها .

65 L'être et le néant, p. 81

66 Ibrd, P. 76

67 Ibrd P. 520.

68 Ibrd, P. 708

وسيظل انسان العصر فى هوه الضياع اذا لم ينجاور القلق الى الايمان ، وستزداد مشكلاته حدة اذا ظل يمارس حرية كتلك التى يدعو اليهاسارتر ، وهى حرية من شأنها ان تؤدى به الى التردى فى الهوة السحيقة التي يريد سارتر أن يؤول اليها كل وجود انسانى ، وهى هوة العدم .

وحين يركز فلاسفة هذا العصر اهتمامهم على ما يسمونه « مأساة الانسان » فهم ينطلقون من الالحاد . والذى ينطلق من الالحاد « كمن مثله فى الظلمات ليس بخارج منها» (سورة الانعام، آية ١٢٠) .

« ومن لم يجعل الله له نورا فما له من نور » سوره النور ، آية ٤٠

ان كثيراً من فلسفات العصر اذ تنتهى الى العدمية (Nihilism) لا تمثل الاخواء فكرياً كفيلاً بالقضاء على كل ما هو عظيم من انجازات الانسان .

(٣)

واذا كان نمه فى عصرنا هذا فلسفات عدمية لا ترى لحياه الانسان معنى ، فانه توجد فيه ايضا فلسفات أخرى تصطبغ فى ظاهرها بصبغة العلم ولا ترى فى الوجود الا المادة ، وتذهب الى أن العالم المادى الذى ندركه بحواسنا هو الحقيقة الوحيدة ، وان الماده ليست من نتاج العقل بل أن العقل ما هو الا أسمى نتاج للمادة .

ومثل هذه الفلسفات الاخيره انما تولد فى الانسان غرورا لا حد له بنفسه وبالعلم وانجازاته . وما نراه الآن فى عالمنا المعاصر من استخدام العلم والتكنولوجيا فى اثارة الحروب والتدمير ، انما هو مظهر من مظاهر غرور الانسان المعاصر بالقوة المادية وحدها وابعاده عن القيم الانسانية التى يمكن أن تحد من شرور تلك الحروب وويلاتها .

ولا يمكن لانسان العصر أن يستقر نفسياً ويأخذ وجهته الصحيحة نحو انجاز رسالته على الأرض الا اذا عرف حدوده مع خالق هذا الكون ومدبره . ذلك أن الكون كله شأن من شئون الله تعالى ، « ولله ما فى السموات وما فى الارض والى الله ترجع الامور » (سورة آل عمران ، آية ١٠٩) . فهو تعالى خالق الكون بما فيه الانسان، وهو الذى ركب العقل فى الانسان ليعمر به الارض لا ليدمرها ، وليعرف به خالقه لا ليلحد . وحاول أن تضع الانسان فى اطار الكون كله وقوانينه الحتمية ــ لا فى اطار قدرته الخاصة المحدودة ــ لترى ان ليس للانسان قدرة على توجيه مجرى الحوادث الكونية وفق مشيئته ، لأن هذا من شأن خالق الاشياء جميعا ومدبرها وهو الله . وتأمل بعد ذلك عمق المعنى فيما ورد فى القرآن الكريم على لسان ابراهيم ردا على أحد المنكرين لوجود الله عن طريق تعريفه بعجزه فى نطاق ذلك الاطار الكونى الذى أشرنا اليه :

« ألم تر الى الذى حاج ابراهيم فى ربه أن آتاه الله الملك اذ قال ابراهيم ربي الذى يحيي ويميت قال أنا أحيي وأميت قال ابراهيم فان الله يأتي بالشمس من المشرق فأت بها من المغرب فبهت الذى كفر والله لا يهدى القوم الظالمين »(سورة البقرة ، آية ٢٥٨) .

ومن الطبيعى اذا كان الانسان عاجزاً بالنسبة لما يجرى فى الكون ان يكون عاجزا بالنسبة لخالق الكون ، يقول تعالى منبهاً أفراد الانسان :

« وما أنتم بمعجزين في الارض ولا في السماء » (سورة العنكبوت ، آية ٢٢) .

ولعل معنى هذه الآية لم يتضح تماما الابعد نجاح الانسان فى الهبوط على سطح القمر ،

وربما تساءل الانسان قبل ذلك عن معنى قوله تعالى : « ولا فى السماء » اذ ما شأن الانسان بالسماء ؟ وكيف يكون غير معجز لله فيها ، وهو كائن من شأنه أن يكون دائما على الأرض ؟

ومن أطرف ما وقفت عليه فى تفسير هذه الآية عبارات للامام فخر الدين الرازى يوضح فيها ان الانسان ، لو استطاع أن يصل يوما ما الى السماء ، وهو جائز فانه لن يكون معجزاً لله فى هذه الحالة ايضا ، فلم يطرح من ذهنه امكانية وصول الانسان الى الفضاء الخارجي بما فيه من اجرام ، وقد كان ذلك فى عصره ضرباً من ضروب الخيال ، مع انه أصبح فى عصرنا حقيقة واقعة . يقول الرازى ما نصه : « ما أنتم بمعجزين فى الارض ولا فى السماء « يعني بالهرب أو الثبات » أى لا تخرجون من قبضة قدرة الله ، فلا اعجاز لا بالهروب ولا بالثبات » .. وقدم (تعالى) الارض على السماء لان هربهم الممكن فى الارض ، ثم أن فرضنا لهم قدرة غير ذلك ، فيكون لهم صعود فى السماء » (٦٩) .

أن تلك الآية ، وكثير غيرها فى القرآن انما تنبه الانسان الى خلق التواضع ، فمهما تقدم العلم ، ومهما سيطر الانسان على بعض جوانب الطبيعة ، فلا ينبغى ان يفتر بما وصل اليه ، وانما عليه أن يتذكر دائما أن ثمة قوة أكبر من قوته وهي قوة الخالق . وان الكون أوسع من أن يحيط به عقله المحدود .

لقد سأل صحفي أمريكي يدعي « فيرك » العالم المشهور اينشتين قبيل وفاته (٧٠) عن موضوع الايمان بالله فرد عليه اينشتين قائلا :

أما انا فلست ملحدا ، ولا أدرى ما اذا كان يصح فيَّ القول بأني من أنصار مذهب وحدة الوجود ، فالمسألة أوسع نطاقا من عقولنا المحدودة (لاحظ دلالة اعتراف اينشتين هنا بأن العقل البشرى محدود مع أن عقليته تعد أكبر عقلية علمية فى القرن العشرين) .

فعاد فيرك ليقول له : ان الرجل الذى يكتشف أن الزمان والمكان منحيان ، ويحبس الطاقة فى معادلة واحدة جدير به ألا يهوله الوقوف فى وجه غير المحدود .

ويرد عليه اينشتين قائلا : اسمح لي أن اجيب بأن اضرب مثلا . ان العقل البشرى مهما بلغ من عظم التدريب وسمو التفكير عاجز عن الاحاطة بالكون . فنحن أشبه الأشياء بطفل دخل مكتبة كبيرة ارتفعت كتبها حتى السقف فغطت جدرانها ، وهى مكتوبة بلغات كثيرة . فالطفل يعلم أنه لا بد أن يكون هناك شخص قد كتب تلك الكتب ، ولكنه لا يعرف من كتبها ، ولا كيف كانت كتابته لها ، وهو لا يفهم اللغات التى قد كتبت بها .

ثم ان الطفل يلاحظ أن هناك طريقة معينة فى ترتيب الكتب ونظاماً خفيا لا يدركه هو ، ولكنه يعلم بوجوده علما مبهما ، وهذا على ما أرى هو موقف العقل الانسانى من الله مهما بلغ ذلك العقل من السمو والعظمة والتثقيف العالي .

---

(٦٩) انظر التفسير الكبير ، فى تفسيره للآية ٢٢ من سورة العنكبوت .

(٧٠) اوردنا نص هذا الحوار وعلقنا عليه فى مجموعة بحوث لنا نشرتها وزارة الاوقاف بالجمهورية العربية المتحدة بعنوان « محاضرات فى علوم القرآن الكريم والعقيدة والاخلاق والتصوف والفلسفة » القاهرة ١٩٦٧ ، ص ٢٣ ـ ٢٤ . وانظر ايضا كتاب الدكتور محمد عبد الرحمن مرحبا عن اينشتين ، بيروت ١٩٦٢ ، ص ١٤١ وما بعدها .

وعاد الصحفى الامريكى ليسأله مرة أخرى:

أليس فى وسع أحد ، حتى أصحاب العقول العظيمة ، ان يحل لنا هذا اللغز ؟

فكانت اجابة أينشتين كما يلى :

نرى كونا بديع الترتيب خاضعا لنواميس معينة . ونحن نفهم تلك النواميس فهما يشوبه الابهام ، وان عقولنا المحدودة لا تدرك القوة الخفية التى تهيمن على مجاميع النجوم !

من هذا الحوار ذى المغزى العميق يتبين لك أن أينشتين في موقفه من مشكلة الكون وخالقه لم يخرج عن الأدب الذى رسمه لنا القرآن الكريم . فالقرآن قد حثنا على النظر فى الكون وقوانينه لكى نعرف الله بآثاره وصفاته ولكن مع التواضع التام بازاء الخالق تعالى ، لأن عقولنا محدودة ، ولن تستطيع ان تدرك كنهه تعالى . قال تعالى :«لا تدركه الابصار وهو يدرك الابصار» (سورة الانعام ، آية ١٠٣) .

ولعلك تدرك ههنا ايضا عمق المعنى فيما حكى عن الجنيد أحد كبار ائمة التصوف في الاسلام ، قال : « أشرف كلمة فى التوحيد قول أبى بكر (الصديق) : سبحان من لم يجعل للخلق طريقا الى معرفته الا العجز عن معرفته » (٧١) .

ان الانسان اذا استطاع ان يجمع بين العلم بالكون المادى والتصوف من حيث هو قيم اخلاقية رفيعة ونزعة روحية مثالية تهدف دائما الى النفاذ الى الحقيقة ، فانه يصل الى ذروة الكمال .

والتصوف الحقيقى علاج للفرد وللمجتمع ، فهو يجنب الفرد شرورا كثيرة على رأسها الغرور بنفسه وبعلمه وبامكانياته ، وهو فى نفس الوقت يحدث فى المجتمعات التي تسودها فلسفات مادية نوعا من التوازن بين مطالب المادة ومطالب الروح .

لقد بدأت مجتمعاتنا ، فى زحمة الحياة المادية تفقد مقومات وجودها الروحى ، وأصبحت فى عصر سيادة القوة المادية وحدها تتشكك فى القيم الانسانية الرفيعة ، هل لها وجود أم انها وهم من الاوهام ! لقد أصبح الناس فى عصرنا ــ اللهم الاقلة واعية ــ ينظرون الى كل شيء على ضوء المادة ويقيسون كل شيء بمقياس الحس .

ويقيننا أن الناس لو انصرفوا قليلا عما شغلتهم به الدنيا الى تدبر ما فى الاسلام من المثل الروحية ، ولو آمنوا بأن وراء المادة والحس عالما آخر له روعته وجلاله ، وله قيمه ومعاييره لغيروا من حكمهم على الاشياء ، ولوجدوا الراحة النفسية بعد العناء ، ولأقبلوا على حياتهم في تفاؤل وابتسام ، ولاندفعوا الى العمل المثمر فى همة وثبات .

ان التصوف منهج كامل فى الحياة، والصوفى المحقق هو الذى لا يرى تعارضا بين حياته التعبدية وحياة المجتمع الذى يعيش فيه ، بل هو الذى يستعين بحياة التعبد على حياة المجتمع وما فيها من مشقة وكفاح ، والتصوف بهذا المعنى ، « فلسفة ايجابية » تضفى على حياة الانسان معنى ساميا .

---

(٧١) الطوسي : اللمع ، القاهرة ١٩٦٠ ، ص ١٧٢ .

لهذا لا ينبغى ان يظن بأن الصوفية قوم سلبيون يصرفون الناس عن الكون المادى وعلومه الى الاغراق فى العبادة والانعزالية عن المجتمع ، فهذا تصور غير صحيح بالنسبة لصوفية الاسلام، فالتصوف الاسلامى يعبر عن قيم الاسلام ،والاسلام دين جامع بين العمل الدنيوى والعمل الأخروى ، ولا يصرف الناس عن الأخذ بأسباب الدنيا وبخيراتها « قل من حرم زينة الله التى اخرج لعباده والطيبات من الرزق » (سورة الاعراف ، آية ٣٢) .

ان نظرة صوفية الاسلام الى الكون والانسان ذات مغزى اخلاقى بعيد ، فهم يريدون ان يبينوا للناس ان الكون مجرد شأن من شئون الله، ومصيره حتما الى الفناء ، فلا ينبغى على الانسان العاقل أن يتعلق نفسيا بالكون الى حد عبادته ،يقول تعالى :

« كل من عليها فان . ويبقى وجه ربك ذوالجلال والاكرام » (سورةالرحمن،آية ٢٦ـ٢٧) .

وكذلك لا ينبغى على الانسان ان يفتر بنفسه وبعلمه ، يقول تعالى :

« ولا تمش في الأرض مرحا انك لن تخرق الارض ولن تبلغ الجبال طولا » آ سورة الاسراء ، آية ٣٧) .

« وما أوتيتم من العلم الا قليلا » (سورة الاسراء ، آية ٨٥) .

ولا بد من تطهير القلب عن اخلاقياته الذميمة، وعن التعلق بكل الأغيار العدمية (جمع غبر، ويشير بها الصوفية الى كل ما سوى الله) او الأكوان ، لتشرق فى هذا القلب المعرفة الحقيقية بالله ، والى ذلك المعنى يشير ابن عطاء الله السكندرى بقوله : « كيف يشرق قلب صور الاكوان منطبعة فى مرآته ؟! »

أم كيف يرحل الى الله وهو مكبل بشهواته ؟أم كيف يطمع أن يدخل حضرة الله وهو لم يتطهر من جنابة غفلاته ؟ أم كيف يرجو أن يفهم دقائق الاسرار وهو لم ينب من هفواته ؟! » (٧٢) .

لا بد اذن من ان ينفكر الانسان فيما يشاهده في الأكوان من دلالة على وجود الله ، يقول ابن عطاء الله : « الفكرة سير القلب فى ميادين الاغيار » (٧٣) .

ويوضح لنا ابن عباد الرندى معنى هذه الحكمة قائلا :

« الفكرة التى ألزمها العبد وحض عليها هى سير القلب في ميادين الأغيار فقط،وهى مخلوقات الله ومصنوعاته .

« واما الفكرة فى ذات الله فلا سبيل اليها ،يعبر المنفكرون فى آياته ولا يتفكرون فى ماهية ذاته »

---

(٧٢) شرح الرندى على الحكم ، جـ ١ ، ص ٢٠ .

(٧٣) شرح الرندى على الحكم ، جـ ٢ ، ص ٩٥ .

« روى عن ابن عباس رضى الله عنهما ان رسول الله (ص) ابصر قوماً ، فقال : ما لكم ؟ فقالوا : نتفكر فى الخالق ، قال : تفكروا فى خلقه، ولا تفكروا فى الخالق فانكم لا تقدرون قدرة »(٧٤)

واذا كان الماديون فى عصرنا هذا وفى كل عصر لا يعتدون الا بالحس ، ولا يؤمنون الا بالعالم المادى ، فان الصوفية على العكس من ذلك يرون ان العالم المادى ليس غاية فى ذاته وانما وراءه علة صانعة حكيمة مدبرة . صحيح أن الله تعالى قد أباح للانسان أن يتنقل بالبحث في المكونات ، او بالعلم المادى ، ولكنه امره فى نفس الوقت بعدم الوقوف عند حد المكونات، وانما عليه ان يتجاوزها الى ما وراءها من الأسرار ، وقد ضمن ابن عطاء الله هذا المعنى فى قوله « أباح لك ان تنظر ما فى المكونات، وما أذن لك ان تقف مع ذوات المكونات »« قل انظروا ماذا فى السماوات» (سورة يونس، آية ١٠١) . فتح باب الأفهام ، ولم يقل انظروا السموات لئلا يدلك على وجود الاجرام » (٧٥) .

ان « أشبه شيء بوجود الكائنات اذا نظرت اليها بعين البصيره وجود الظلال، والظل لا موجود باعتبار جميع مراتب الوجود ، ولا معدوم باعتبار جميع مراتب العدم . واذا ثبتت ظلية الآثار « اى الكائنات » لم تنسخ أحدية المؤثر (الله) ، اذ الشيء انما يتسفع بمثله ، ويضم الى شكله»(٧٦)

كل ما فى الكون اذن ناطق بوحدانية الله ، يقول ابن الفارض فى « التائية الكبرى » .

والسنة الاكوان ان كنت واعيا ... شهود بتوحيدى بحال فصيحة

وكيف يكون للكائنات وجود حقيقى مع الله و « الكائنات لا ينبت لها رتبة الوجود المطلق ، لأن الوجود الحق هو لله وله الاحدية فيه . وانما للعوالم الوجود من حيث ما أثبت لها ، فاعلم ان من الوجود له من غيره فالعدم وصفه فى نفسه »(٧٧) .

ويمضى بعض الصوفية من اصحاب وحدة الوجود (Pantheism) كابن عربي الى حد وصف الكون بأنه محض خيال اذا نظرنا اليه في ذاته ، اما اذا نظرنا اليه من حيث هو مظهر لتجلى الحق باسمائه الالهية ، فانه يصبح حقيقة ، والى هذا يشير بقوله :

انما الكون خيال ... وهو حق فى الحقيقة
والذى يفهم هذا ... حاز أسرار الطريقة (٧٨)

ان هذه الآراء ليست بعيدة عن روح العلم الحديث كما قد يظن لأول وهلة ، فان صورة

---

(٧٤) شرح الرندى على الحكم ، جـ٢ ، ص ٩٥ .

(٧٥) شرح الرندى على الحكم ، جـ ١ ، ص ١٢٨ .

(٧٦) لطائف المنن ، القاهرة ١٣٢٢ هـ ، ص ١١٤ ـ ١١٥ .

(٧٧) لطائف المنن ، ص ١١٤ .

(٧٨) ابن عربى : نصوص الحكم ، نشر وتحقيق وتعليق الدكتور ابو العلا عفيفى ، القاهرة ١٩٤٦ ، ص ١٥٩ .

الكون بعد نظرية اينشتين لم تعد تختلف كثيرا عن صورته لدى الصوفية ، ما دامت المجودات فيه ذرات ، والذرات تتحلل الى اشعاعات،وما نحسه من ثبات الموجودات وصلابتها انما هو أمر راجع الى ادراكنا فقط وليس الى حقائقها .

ولولا العلة التى شاءت أن تأتلف خيوط احداث هذه الموجودات لتبرز الى العالم فى صورتها المدركة لنا ، لما كان لهذه الموجودات وجود ،ولذلك يقول ابن عطاء الله : « لولا ظهوره (اى الله) فى المكونات ما وقع عليها وجود ابصار ،لو ظهرت صفاته اضمحلت مكوناته »(٧٩).

وما اعمق المعنى ايضا فى قوله :

« الكون كله ظلمة ، وانما أناره ظهور الحق فيه ، فمن ، رأى الكون ولم يشهده فيه أو عنده او قبله أو بعده ، فقد أعوزه وجود الأنوار ،وحجبت عنه شموس المعارف بسحب الآثار »(٨٠).

وقد كشف ابن عباد الرندى عن الأغوار البعيدة لمعاني هذه الحكمة ، وما تتضمنه من الاشارات الى اختلاف مناهج العارفين فى نظرتهم الى الكون ومعرفتهم بخالقه ، اذ يقول :

« ثم اختلفت احوال الناس ههنا :

« فمنهم من لم يشاهد الا الاكوان ، وحجب بذلك عن رؤية المكون ، فهذا تائه فى الظلمات محجوب بسحب الآثار الكائنات (كأنى به يشير الى الحسيين من علماء عصرنا وفلاسفته) .

ومنهم من لم يحجب بالاكوان عن المكون ،ثم هم فى مشاهدتهم اياه فرق :

« فمنهم من شاهد المكوّن قبل الأكوان ، وهؤلاء هم الذين يستدلون بالمؤثر على الآثار (يشير هنا الى بعض الصوفية الذين يستدلون بالله على الكائنات ، ومن غريب الاتفاق أن يكون هذا هو نفس اتجاه الفيلسوف الفرنسى ديكارت فى سيره من اثبات وجود الله الى اثبات حقيقة العالم الخارجى) .

« ومنهم من شاهده (اى المكوّن) بعد الأكوان ، وهؤلاء هم الذين يستدلون بالآثار على المؤثر (يشير هنا الى المتكلمين والفلاسفة ومن نحا نحوهم فى اثبات وجود الله بواسطة الاستدلال العقلى اذ يصعدون من الكائنات الى مكونها) .

« ومنهم من شاهده مع الأكوان . والمعية ههنا اما معية اتصال ، وهى شهوده فى الأكوان ، واما معية انفصال وهى شهوده عند الأكوان .

« وهذه الظروف (المذكورة فى حكمة ابن عطاء الله) ليست بزمانية ولا مكانية ، لأن الزمان والمكان من جملة الاكوان » (٨١) .

---

(٧٩) شرح الرندى على الحكم ، جـ ١ ، ص ١٢٧ .

(٨٠) شرح الرندى على الحكم ، جـ ١ ، ص ٢١ .

(٨١) شرح الرندى على الحكم ، جـ ١ ، ص ٢١ .

ان نظرة بعض الصوفية الى الكون على هذاالنحو تلتقى مع العلم . فهم يريدون القول بأن الكون ، في أبعاده الشاسعة التى لا يحيط بها عقل الانسان ، لا ينبغي أن يكون خاضعا لتصوراتنا نحن عن الزمان والمكان ، لانهما ــ على حد تعبير الرندى ــ من جملة الأكوان ، والأكوان لا توصف بالوجود الحقيقى . فالزمان والمكان اذن امران نسبيان لا وجود لهما فى الحقيقة الا من حيث ما يدرك الانسان بهما ما حوله من العالم المحسوس وموجوداته .

خلاصة القول ان الصوفية يعتبرون الوقوف مع موجودات هذا الكون مع الغيبة عن ادراك المكون ممالا يليق بالانسان، لان كل ما فى هذا الكون ناطق بوجوده تعالى ، وليس ثمه حجاب بين الانسان والله ، لان الله متجل فى الموجودات على اختلافها و « كيف يحتجب الحق بشيء ، والذى يحتجب به هو فيه ظاهر وموجود حاضر ؟! » (٨٢)

الحجاب اذن فينا نحن ، فى شهواتنا واهوائنا ، ولو تخلصنا منها لبدت الحقيقة واضحة كشمس النهار . وبهذا أيضا نتحقق حريتنا الجديرة بنا . وما أعمق المعنى فيما يقوله ابن عطاء الله :

« أنت مع الاكوان ما لم تشهد المكون ، فاذا شهدته كانت الأكوان معك » (٨٣)

هناك اذن « فرق ما بين كونك مع الأكوان ، وكون الأكوان معك .

« فان كونك مع الأكوان يقتضى تقييدك بها، وحاجتك اليها ، فأنت بذلك عبد لها ، ثم هى خاذلتك ومسلمتك أحوج ما تكون اليها ، وهذه حالة خسيسة يقتضيها عدم شهودك للمكون .

« وكون الأكوان معك يقتضى ملكك لها ، واستغناءك عنها (هذا هو المعنى الحقيقى للزهد في الاسلام ، وهو أن تملك الشيء ولا تكون له عبدا فى نفس الوقت) ، فأنت حينئذ حر عنها ، وهي محتاجة اليك وخادمة لك » (٨٤)

وقد يتبادر الى الذهن أن الصوفية يهونون من شأن الانسان ومكانته فى الكون ، كما يزهدونه فى الكون نفسه . وليس ثمة شيء ابعد عن الحقيقة من هذا .

وكيف يزهد الصوفية الانسان فى الكون ، والكون مظهر تجليات الله بصفاته المختلفة كالعلم والحكمة والقدرة والخلق والتدبير وما اليها ؟

وكيف يهون الصوفية من شأن الانسان وهم يعلمون انه خليفة الله على هذه الارض ؟

لا بد ان يكون وراء كلامهم عن الكون والانسان غايات بعيدة ، فهم يريدون للانسان فى علاقته

---

(٨٢) شرح الرندى على الحكم ، جـ ١ ، ص ٥٠ .

(٨٣) شرح الرندى على الحكم ، جـ ٢ ، ص ٨٧ .

(٨٤) شرح الرندى على الحكم ، جـ ٢ ، ص ٨٨ .

بالكون أن يكون خاضعا لقيم أخلاقية معينة ، فلايتعالى ولا يطغى ، ولا يفتـر بعلمـه ولا يعجب بامكانياته ، انهم كذلك يريدون له أن يتحرر من عبودية الركون الى العالم المحسـوس وملذاتـه لينطلق الى فضاء المعرفة بخالقه .

انهم كأطباء النفوس ، يعلمون الكثير عـن نواحى الضعف الخلقى فى الانسان، فيريدون علاجها وتلافى اسبابها ، لما يترتب عليها من شرور مدمرة تلحق بالانسان ذاته وبمجتمعه ، الم يقل اللـه تعالى :

« وخلق الانسان ضعيفا » (سورة النساء ، آية ٢٨) .

« وكان الانسان عجولا » (سورة الاسراء ، آية ١١) .

« وكان الانسان اكثر شيء جدلا » (سورة الكهف ، آية ٥٤) .

« كلا ان الانسان ليطغى أن رآه استغنى » (سورة العلق ، آية ٦ ـ ٧) .

وهذه الآيات انما تصور الانسان حين ينحرف فى سيره عن الوجهة التى يريدها الله له .

أما الانسان من حيث ما يحقق انسانيته بالعلم وقيم الأخلاق فلا حدود لارتقائه وتقدمه .

انه صورة مصغرة للكـون كلـه جامعـة لاسراره (٨٥) ، أليس هو الكائن الوحيد القادر على تصفح موجودات هذا العالم ومعرفة اسرارها بما اودعه الله فيه من الاستعداد لذلك ؟

ان الكون المادى وان وسع الانسان من حيث جسمه المادى الا أنه لا يسعه من حيث حقيقته الروحانية ، يقول ابن عطاء الله :

« انما وسعك الكون من حيث جثمانيتك ، ولم يسعك من حيث تبوت روحانيتك » (٨٦) .

« جعلك فى العالم المتوسط بين ملكه وملكوته لبعلمك جلالة قدرك بين مخلوقاته ، وأنك جوهرة تنطوى عليك أصداف مكوناته » (٨٧) .

وليعذرنا القارىء اذا كنا قد اطلنا الحديث بعض التسيء عن نظرة صوفية الاسلام الى الكون والانسـان ، فلقد كان هدفنا أن نظهره على ما في الفكر الاسلامي من نظرة عميقة واعية الى الكون والانسان تستند الى قيم خلقية رفيعة ، وتنطوى على نزعة مثالية تهدف الى النفاذ الى الحقيقة

---

(٨٥) لذلك يسمى بعض القدماء الانسان بالعالم الاصغر . يقول الهانوى : « وفى أسرار الفاتحة قد يقسم العالم الى الكبير والصغير ، واختلف فى تفسيرهما ، فقال بعضهم : العالم الكبير هو ما فوق السماوات ، والصغير هو ما تحتها ، وقيل : الكبير ملكوت السماوات والارض وما بينهما ، والعالم الصغير هو الانسان » ، كشاف اصطلاحات الفنون ، مادة : « العالم » .

(٨٦) شرح الرندى على الحكم ، ج ٢ ، ص ٨٧ .

(٨٧) شرح الرندى على الحكم ، ج ٢ ، ص ٨٦ .

العليا ، وهى في نفس الوقت من ألزم ما يكون لمجتمعاتنا فى هذه المرحلة من تطورها لتحد من غلواء المذاهب المادية ، وشطط المذاهب العبثية ، التى افتتن بها البعض فى عصرنا .

ومن الخطأ في رأينا أن نعزل العلم عن التصوف أو القيم الاخلاقية بدعوى الموضوعية ، فما الذى يمنع من أن يكون العالم بالكون وموجوداته مؤمنا بالله ، ومتخلقا بكل خلق رفيع ؟ ألا يكون هذا ضمانا لعدم انحراف العلم فى عصرنا عن مساره الطبيعى ، وهو نفع الانسان ، الى استخدامه فى شرور لا يعلم الا الله وحده ماذا سيكون مداها فى المستقبل ؟

ان الامتزاج الحقيقى بين الصوفى ورجل العلم هو — فى رأى الفيلسوف المعاصر برتراند رسل(١) وليس فى رأينا وحدنا — قمة السمو ، وهو شيء يمكن تحققه فى عالم الفكر .

وتأمل فيما يقوله رسل ايضا : « اذا كانت لدينا الرؤية الصوفية للعالم ، وما يتجلى فيه من المرائي ، على أنه يكتسي بنور سماوى ، فانه يمكن القول بوجود خير أسمى أعلى من ذلك الذى يطلبه الفعل ، وان ذلك الخير يغمر العالم كله . وهذا الحب الكلى لكل ما يوجد ، ذو اهمية قصوى من حيث السلوك والسعادة في الحياة ، ويعطى للعاطفة الصوفية قيمة لا يمكن تقديرها » (٨٩) .

* * *

« ٨٨ » انظر بحث برتراند رسل Mysticism and logic

وقد نشرنا ملخصه مع دراسة تحليلية له فى بحث لنا نشر بمجلة « الفكر المعاصر » القاهرة ، العدد ٣٤ ، ديسمبر ١٩٦٧ ، وجدير بالذكر ان العدد كله عن رسل وفلسفته .

(89) Myoticism and logic, p. 49.

ثبت بأهم المراجع

١ ـ القرآن الكريم .

٢ ـ ابن حزم : الفصل فى الملل والاهواء والنحل ،القاهرة ١٣١٧ هـ .

٣ ـ ابن رشد : فصل المقال فيما بين الحكمة والشريعةمن الاتصال ، القاهرة ١٣٢٨ هـ .

٤ ـ ابن رشد : الكشف عن مناهج الادلة فى بيـان عقائد الملة ، القاهرة ١٣٢٨ هـ .

٥ ـ ابن عباد الرندى : شرح الحكم العطائية المعروفبغيث المواهب العلية ، القاهرة ١٢٨٧ هـ .

٦ ـ ابن عربي : فصوص الحكم ، نشر وتحقيق وتعليقالاستاذ الدكتور ابو العلا عفيفى ، القاهرة ١٩٤٦ م .

٧ ـ ابن عطاء الله السكندرى : التنوير فى اسقاط التدبير ، القاهرة ١٣٤٥ هـ .

٨ ـ ابن عطاء الله السكندرى : الحكم ، مع شرح الرندى ، القاهرة ١٢٨٧ هـ .

٩ ـ ابن عطاء الله السكندرى : لطائف المنن ، القاهرة ١٣٢٢ هـ .

١٠ ـ ابو الوفا التفتازانى : ابن عطاء الله السكندرى وتصوفه ، الطبعة الثانية ، القاهرة ١٩٦٩ .

١١ ـ ابو الوفا التفتازانى : علم الكلام وبعض مشكلاته ، القاهرة ١٩٦٦ .

١٢ ـ التهانوى : كشاف اصطلاحات الفنون ، كلكتا ١٨٦٢ هـ .

١٣ ـ الجرجانى : التعريفات ، القاهرة ١٢٨٣ هـ .

١٤ ـ الحافظ المنذرى : مختصر صحيح مسلم ، بتحقيقمحمد ناصر الدين الالبانى ، سلسلة احياء التراث الاسلامى التى تصدرها وزارة الاوقاف والشئون الاسلامية بدولـة الكويت ، الكويت ١٣٨٨ هـ = ١٩٦٩ م .

١٥ ـ دى بور : تاريخ الفسلفة فى الاسلام ، ترجمةالاستاذ الدكتور محمد عبد الهادى ابو ريدة الطبعة الثالثة، القاهرة ١٩٥٤ م .

١٦ ـ الشهرستانى : الملل والنحل ، بهامش الفصـل لابن حزم ، القاهرة ١٣١٧ هـ

١٧ ـ الشيبانى : تيسير الوصول الى علم الاصول ،القاهرة ١٣٤٦ هـ .

١٨ ـ صاعد الاندلسى : طبقاتالامم، نشر المكتبة الحيدرية بالنجف الاشرف ، ١٣٨٧ هـ = ١٩٦٧ م .

١٩ ـ الصنعانى (بدر الدين) : ترجيح اساليب القرآن على اساليب اليونان القاهرة ١٩٣١ م .

٢٠ ـ الطوسى : اللمع ، القاهرة ١٩٦٠ م .

٢١ ـ الغزالى : احياء علوم الدين ، القاهرة ١٣٣٤ هـ .

٢٢ ـ الغزالى : المستصفى ، القاهرة ١٣٢٢ هـ .

٢٣ ـ فخر الدين الرازى : مفاتيح الغيب المشتهر بالتفسير الكبير ، القاهرة ١٣٢٤ هـ .

٢٤ ـ الكندى : الرسائل ، نشر وتحقيق وتعليق الاستاذ الدكتور محمد عبد الهادى ابو ريدة ، القاهرة ١٩٥٠ م .

٢٥ ـ الله يتجلى فى عصر العلم ، مجموعة مقالات لبعضالعلماء المعاصرين ، نشرها جون كلوفر مونسما ، نشر دار احياء الكتب العربية بالقاهرة .

٢٦ ـ شرح العقيدة الطحاوية فى العقيدة السلفية لشارح مجهول (يرجح انه الأذرعى الدمشقى المتوفى سـنة ٧٤٦ هـ) الطبعة السلفية بمكة المكرمة ، ١٣٤٩ هـ .

بعض المراجع الاجنبية الوارد ذكرها فى البحث :

(1) Descartes (R) : Discours de la méthode, ed joseph Gilbert.

(2) Descartes (R) : Les Principes de la Philosophie ed. joseph Gilbert.

(3) Lalande (A) : Vocalulaire technique et critique de la philosophie, Paris 1956.

(4) Malbranche : Entretiens métaphysiques, ed. Fontana.

(5) Russell (B) : Mysticism and logic, London 1914. in Selected Papers, The Modern Library, 137. New York, 1927.

(6) Sartre (J. – P.) : L'être et le néant, 1966 Editions gallimard, 1943, Offset-Aubin à Poitiers (Vienne), 1966.